رواية

الفؤاد

بين المصائب الشداد

الفقير اليه تعالى

فؤاد جبران سعد

طبعت في بيروت في المطبعة الادبية سنة ١١٩



الفصل الاول

كان منذ سنين على طريق فرنسار عند مدخل غابة فونتنبلو بيت صغير يبعد نحوًا من مئتين وخمسين ذراعًا عن سائر المساكن مكتنفًا بالاشجار انيقًا جميلاً ذا هيئة سرّيةٍ حتى يقول من مرَّ بهِ ذلك مكمن محبين نعم مكمن محبين لاختفائهِ بحلة خضراء من النبات فلا يكاد يرى منهُ الاَّ قمته المستطيلة في الهواء حتى اذا طلعت الشمس والقت اياتها على ذلك البيت اخذ مظهرًا يسحر القلوب فانَّ اجرَّ السقف على اختلاف اشكالهِ كان يسطع بانوارٍ متباينة الالوان كانهُ والخضرة محدقة بهِ رداء زمرّدٍ مرصع بالعقيق والالماس بحيث لو رآه الولد لقال ذلك مقام بهجةٍ ولو نظره الشاب لقال اودُّ لو اعشق في هذا المكان

وكان ذات ليلة في فصل الخريف شاب يدعى فرنان وصاحب لهُ يسمى ادوار من اشهر المصورين مارّين قريبًا من ذلك البيت فحالت التفاتةٌ من فرنان اليهِ وقال لرفيقهِ . ما كان اسعدني لو خلوت وكرمانه في هذا المنزل البديع . فاجاب ادوار . اذن فاشترهِ ولتقضي شهر العسل وان البيت لاحد اصحابي لودويك ريشار وهو لا يستأمن تركهِ لانه يبيع قليلاً من متاعه ويصرف كثيرًا على عيلتهِ على انهُ الان محتاج الى دراهم

وما مضى على ذلك الا يومان حتى اصبح فرنان مالك البيت وقاطنهُ هو وكرمانه . ولم يكن لفرنان من العمر الاَّ خمس عشرة سنة يوم توفي ابوه على اثر جراحٍ اصابتهُ في برازٍ وكان قد ابقى لولدهِ ثروة عظيمة فلما رشد

فرنان رغب الى امهِ ان تلبث مدبرة اعماله واكتفى بوظيفة سنوية تبلغ اربعين الف فرنك . وعند ما جاز الى سن الواحد والعشرين رأى كرمانه في مجلس طرب في احد المنتديات أقيم لمنفعة ضارب القيثارة الشهير دانيال روبرت

وان دانيال روبرت قبلها بسنة في ممرّه بمدينة بيون اظهر في عدّة مجتمعات بدائع على الالات منحتهُ حظوة عظيمة عند القوم بحيث لم تقم حفلة الاّ دعي اليها ولا بقي باب ردهةٍ الاّ فتح لهُ وتوجذب اليهِ . ولكنهُ بقيَ لا يعبأُ بمساهرات الاعيان بل كان يصرف كثيرًا من وقتهِ عند احد عظماء تجار بيون يدعى دساري وهو ربان قديم ترأَس على جيش الاسوار الفرنساوي ثم اعتزل رتبتهُ وتزوج بابنة احــد باعة الحنطة السيدة بابيتا سنشس وكان ابو هذه الفتاة قد قطن في بيون حيث لم تنجح تجارتهُ في مدينة كديس. فتحسنت احواله الى ان تولاها دساري بعد ان تزوج بابنتهِ سنشس ورجع ابو بابيتا الى كديس ليتمتع بالمكاسب التي نالتهُ بعد عشرة سنين سكناه في بيون فاتفق ان ماتت بابيتا سنشس على اثر نفاس وتركت لعروسها بنية ولكن دساري ما قدران يعيش وحيدًا فتاهل بعد زمان حين بلغت ابنته مرتا خمس سنين من العمر

ومن ذلك العهد انقضت بضعة اعوام على الفتاة وهي مالكة قلب خالتها بما عندها من الكياسة واللطف ولكن الاحوال اخذت بالتغير منذ بدأَت مرتا ان تشب فقد فقدت رعاية خالتها التي كانت تجد انّ في مرتا سيئات عديدة كالانفة والانفراد بالراي والذوق واخذت تشكوها الى زوجها الذي لم يهتم قط بدفع المذمة ولا بفحص ابنتهِ ليبرئها

الا وقد اشتهت امرأة دساري ولدًا فلم تمنحهُ فيئست ان ترى تمام ما ارادت وتلك الخيبة كانت السبب السري الذي من اجلهِ كرهت مرتا وجعلت تحملها كل يوم عذابًا جديدًا وكل ساعة المًا جهيدًا

ولبثت مرتا مصطبرةً على بلواها عالمةً بعدم افادة شكواها من حيث لم يكن ابوها يوءثر حقها على حق امراته

وحدث انهُ تأخرت اعمال دسماري بسبب انكسار احد كبراءِ المتاجر الذي كان يواصلهُ ولأنَّ امرانهُ كانت نزقة شاطرة على غير نظام وقد تأخرَّ مرارًا عن دفع ديون لهُ فخشيَ عليهِ من الانحطاط . ولم يلبث ان شاع في المدينة ان المتجر الذي كان غاية في النجاح تحت ادارة سنشس قد مال الى الهبوط فعندها عزم دسماري على شيء يكذب بهِ الاشاعات العمومية ويستجلب امانة ورضى عملائهِ فانتهز لذلك عيد بلوغ ابنتهِ السنة الثامنة عشر وصنع زينة حافلةً ليظهر ان صندوقهُ لم يفرغ كما ادعت السنة الكذبة واعدَّ لذلك مالاً واهيًا وكان دانيال روبرت من اقوى جواذب تلك الحفلة وقد أثر جمال مرتا في قلب دانيال حتى حدثتهُ نفسهُ ان يجتلي تلك الجوهرة العزيزة ولكنهُ كتم تعجبهُ مخافة ان يشتبه بهِ دسماري او قرينته واحسن ملاطفة كليهما الى ان امنا لهُ . و بعد ثمانية ايام اصبح دانيال من المقربين اليهم بحيث اطلع على ادق غوامض احوال صاحبه دسماري وحينئذٍ فهم دانيال كم كانت مرتا شقية لما يلحق بها من الهموم واخذه العجب لصبر تلك الفتاة الجميلة التي طالما احتملت سوء معاملة خالتها بلا تظلُّم

وما زال دانيال كلما رأى مرتا تستولي على قلبهِ عاطفة غريبة من الميل اليها حتى قال يوماً في نفسه ان لا بدَّ لهُ من انتشالها من ذلك الجحيم ولحظت مرتا اعجاب دانيال بها فسرت بان احد الناس يحبها وذلك الفكر وحذاقة وشهرة الموسيقي حركت شيئًا شيئًا قلبها وسدلت كالستار على تصورها حتى اتفق ان دانيال اتى ذات ليلة قبل العادة فوجدها وحدها تبكي فحدثتهُ نفسه ان يخطفها بين ذراعيه و يبعدها .

— يامرتا تخلصي من هذا البيت . لا احتمل ان اراك تعيسةً فاني احبك ولأعبدنك واخدمنكِ ساجدًا ولأكوننّ كما تشائين اسيركِ او اخاكِ او صاحبك .

فصوبت عينيها نحوه وهي مستغرقة بالافكار ثمّ احمرت . فقال دانيال

— لا تحبيني يامرتا . فما اشقاني اواه لا ترفضي طلبي وضغط يدها وجذبها اليهِ وتطلع في عينيها وقال لا تجيبينني وارحمتاه .

— فتنهدت مرتا واجابت نعم اظن اني احبك فملأ هذا الاقرار قلب المحب من الفرح وبقي يستعمل احر الفصاحة وارشق الحيل حتي تمكن من الظفر على تمنّعها . وفي ليلة تركا كلاهما بيون وذهبا الى باريز .

ولم يخش دانيال ان يسأل دسماري عن ابنتهِ فاسكن مرتا بيتًا زينهُ ورتبهُ ترتيبًا رقيقًا يصلح لراحتها وكانت مرتا ذات قامةٍ رقيقه واعضاء نحيفة لطيفة لها عينان سوداوان تبعثان بريقات تصيد القلوب وهيئةٍ انيقة شفّافه وشعرٍ كأنهُ قطعة من الليل وثغرٍ مرجاني وفي ذلك كلهِ نظر حزين يحرِّك القلب شوقًا . واستلاق دانيال ان يغيّر اسم مرتا وان لم يسأل عنها اهلها فدعاها كرمانه سنشس

وفي مدة الشهور الاول ظنت الفتاة نفسها سعيدة لانها اعتقت من نير خالتها ولم تلحظ لانتقالها من عيشة الى عيشة ان الرجل الذي تبعتهُ لامكان لهُ في قلبها ولولا تضييق اهلها عليها لما استسلمت الى ولاية موسيقيّ اعجبتها صناعتهُ على انها ندمت ولات ساعة مندمٍ حين عواقب زلتها وسوء مستقبلها ارخت ستارًا اسود على عينيها فبقيت عند دانيال معجبًا ببديع جمالها مستطيرًا فرحًا لسرعة فوزه بها .

ولم يطل الزمان على كرمانه حتى تعرفت طبيعة دانيال بكل تأنٍ فرأتها مع زهائها الظاهر كريهةً في الداخل وخبرت منهُ نفاجا لا يحس بما في القلوب عابدًا للفنون لا تملأ قلبهُ الا كثرة التصفيق متقلب يظهر الفرح

او الترح حين يشآء

وبقيت كرمانه تقرأُ صحيفة قلبهِ وهي عازمةٌ على البقآء معهُ حتى تستلب شرحيلهِ وفصاحته الغرارة التي كانت تقنع الناس بما لم تقنع بهِ هيَ واستمرت متأ كدّةً نزاهة قلب دانيال حتى اتي النفار مع الملل واستولى على نفس كرمانه فطلبت اللهو في الدرس وتعلمت الترتيل حتى اصبح صوتها عجيباً وعند ذلك شار عليها دانيال ان تبذل الوسائط للدخول في الملعب المضحك (او بره كوميك) وان اصحاب دانيال مساعدةً لهُ مدحوا صوتها اشد المدح ووعدوها باعظم نجاح في الملعب وكادت ان تلبي مشتهاهم لو لم تلتقِ بفرنان دي بالبان الذي وجد في مجلس طرب صنعهُ الآلي الشهير دانيال

وانه منذ اتي فرنان اوقف ابصاره على تلك الفتاة التي جلست قبالتهُ . ثمَّ التفت لصاحب لهُ يدعى لوسيان وقال

— انظر ما اطلى هذه المخلوقة واحلاها .

— اين هيَ

فاشار لهُ فرنان على كرمانه اشارة خفية وقال

— تلك الصبيَّة اللابسة مخملاً زهريًا

— اه انا اعرفها انها معشوقة دانيال رو برت الذي نسمعهُ الان

فتأ وّه فرنان تأ وهًا لم يخفَ على صاحبهِ

— ا انت عاشقٌ

فلم يجب فرنان على سواله بل قال لهُ

ماذا تدعي

— كرمانه

— لعلها اسبانيوليّة

— ظني ظنك لان هيئتها تدلُّ على ذلك

وبعد انقضاء المحفل اوقف عينهُ على عين كرمانه فتورّد خدها

خجلاً ففال فرنان في نفسهِ

— لو رأيت هذه الفتاة مرتين لفقدت رشدي.

وفي الغد لم يفكر فرنان الاَّ بشيءٍ واحد ان يرى كرمانه

وكان فرنان جميلاً مولعًا بالمسرات نشيطًا في السعي وراء غرضه ولكن غير مالك قياد قلبهِ بحيث لا يطفي نارًا اضرمت فيهِ ولا يضرمها اذا خمدت .

فتمكن الصباح التالي ان يعرف اين مقر كرمانه وان دانيال سافر الى بركسيل و بعد يومين توصل فرنان الى ادراك كل احوال كرمانهِ لفرط ما اجتهد في مواصلتها حتى وقف اخيرًا على تفصيل يهمهُ ان كرمانه غير مشغوفة بعاشقها .

ثمَّ لم يطل عليهِ الامر حتى ادخله احد اصحاب دانيال في جملة موسيقيين كانوا يجتمعون عندها يومًا معيَّنًا في السبة فلما قدم فرنان الى كرمانه رجفت رجفة لحظها فرنان وظن وراها خيرًا فقال لها بصوت منخفض

— لعلك لا تذكريني ياسيدتي ولكنني لم انسَ . . .

— نعم قد رايناك نهار الخميس الماضي في مجلس الطرب الذي اقيم هنا.

— كثيرًا جزعت ان لا تمكنني فرصة لانظرك مرةً اخرى

فزادهذا الكلام اضطراب كرمانه وسكر فرنان فرحًا لانهُ علم بحبها لهُ ونقضت السهرة في محادثة ودادية دخل فيها كل المدعوين الَّا فرنان فانهُ اكتفى بحديث الاعين الذي افصح في صمته من كل لسان

ولما حان الذهاب استرق فرنان سرًّا يد كرمانه وقبلها قبلةً سريعة محرقة لم تنم من اجلها كل الليل لانها لم تعرف الهوى . مالت الى دانيال ولم تشغف بهِ لاحتياج قلبها على غير علم منها الى قلب شاب كريم . وانها منذ لمحت فرنان ظهر لها غير مرة نظرهُ الاحر وازعج سكوتها الخفي ومالبثت قبلتهُ

التي احبتها ان اصبحت كاثر من جمرة كويت بها نفسها في سن الثمان عشرة سنة لها فبذلت جهدها ان تصلح غلطها لتقييد نفسها بشرائع تستسير بها وقالت في نفسها

ما ذنب الشاب الذي سلمتهُ نفسي قد ظننت اني احبهُ وعليَّ وحدي عاقبة هفوتي ولكنها عند ما ابصرت فرنان نسيت اقوالها السابقة ولم تفتكر لعل ذلك الشاب ان يكون نزقًا فقد رأتهُ كما اشتهت ولم يعد فكرها يمثل لها الاَّ صورة فرنان فاذا غاب توهمت انها ترى وجهه الممسوح باصفرار لطيف وشعره الاشقر المتلوي وعينيه الساحرتين وقامتهُ وابتسامةُ الطلي الحلو

ومساء الغد بينما كرمانه جالسة وحدها في ردهة الدار محولة ظهرها الى الباب وفي يدها كتاب كان قد سقط منها على ركبتيها وهي هائمة في هم خفي لانَّ طبيعتها العصبية كانت تخوفها من حادثةٍ مزعجة مبهجة اقبل فرنان نحوًا من الساعة العاشرة فلما دخل ذهبت الخادمة لتعلم سيدتها بقدومهِ فاستوقفها وطرح في يدها دينارًا غلبها بهِ على حسن القيام بمهنتها (ان البراطيل تنصر الاباطيل) وصعد الى غرفة كرمانه ورفع الباب بخفة ثمَّ دخل يمشي كلصٍ بحيث لا يسمع صوت اقدامهِ فرأى كرمانه تبكي ولما حولت ناظرها رأتهُ على اقدامها وشعرت بفرحٍ لا يوصف غلب قلبها على مقاومتهِ واحسَّت انها تحب كل المحبة ذلك الرجل الذي لم يعقهُ مانع عن تقدمة السعادة لحبيبته رغماً عليها فباركت السماء وجعلت تشكر فرنان عوضًا عن توبيخه ولم يخف على فرنان سرورها بهِ من خلال دموعها وانَّ الجسارة حللت لهُ بمحادثتها

— لا تبكي يا كرمانه اعرف جهد امرك انك لا تحبين دانيال فلمَ تضحين نفسك من اجلهِ وان سوء الطالع دون غيره حنى جبينك الطاهر واذبل زهرة حياتك اسفي عليك ان يكون لك مع جمالك وشبيبتك ما يكدر صفاكِ وعندي ان دانيال رغماً على نباهة وحدَّة حذقه احمق لانهُ ما عرف

ان يستميل قلبك ولكني انا اعشقك وانك لا تجدين عندي من بدائع الصناعة وتمتعات التشريف الاّ حبك وحيثما تذهبين اذهب واقبل عليك بالرضى في كلما ترومين واسهر عليك دائمًا خادمًا لك غيورًا عليك وامنحك كل افكاري عوضًا عن قلبك وابتساماتك

فاجابت كرمانه متلهفة

— اليك هذا الحديث فان الماضي قد عرى مستقبلي من السلام ولا ترني النساء لان هذه المسرة حرمت عليَّ

مع انهُ لو امات السعد احدًا لماتت كرمانه في تلك الساعة فقال فرنان

— دعيني احبك واحسُّ انَّ حياتي موصولةٌ بحياتك

— اتعرف كيف تحب فتاة نظيري لا ولعلك تظن ان ذلك هوى يوم واحد والحالة التي انا فيها تفسح لك بهذا الظن ولكن اعلم انني حكمت على نفسي ان اعيش سالمة ولا ادخل بابًا للعشق لانني لم احب قط ولا امنح قلبي لرضى يومٍ واحدٍ او حبٍّ فاترٍ

فقدم لها فرنان مواعيد حبٍّ واعطى نفسهُ ملء الغرام بها حتى خلا قلبهُ الاّ من ظرف وطلاوة تلك الفتاة الناعمة الجسم القوية القلب لانها كانت جميلةً هيبة ساحرة العينين تخطف القلوب

— اقسم اليكِ انني احبك واهبكِ حياتي وارادتي فخذي كل ما عندي وتصرفي به. ثروتي وفكرتي وقلبي وانكِ يا كرمانه لم تعشقي الى الان فدعيني اعبدكِ وقد كنت معدًّا اليكِ من قبل فلا بأس من الوصال وان تعارضنا الدهر وبينما الناس يقومون بواجب اللياقة لنكن احرارًا كلٌّ منا للاخر. لو تعلمين انني لست مصدقًا هذه السعادة ان اكون قريبًا منك ممسكا بيدك وقارئًا في عينيك سرَّ نفسك فهل يمكني ان ادعكِ لغيري واذا كنتِ تحبينني فانسي الماضي واذا كان يسوءك تذكار دانيال فلاقتلنهُ وما عليكِ الآن تأمري

— اذا كنت تحب ان تقتل انساناً فدونك كرمانه انها عاشت ساعةً واكتفت

— أأنتِ تموتين لا والله تحيينَ وكفاني ان تقولي احبك حتى اموت على اقدامك . ففتحت كرمانه شفتيها ولكنها لم تستطع الكلام لازدحام العواطف في قلبها

ولما عاد دانيال من سفرهِ لم يجد كرمانه ولكنهُ علم من رسالةٍ ابقتها لهُ انهُ لن يراها وشرحت لهُ حالها واخبرته عن انقطاعها عنهُ الى رجل عرفت معهُ حقيقة الغرام وانهُ يجب عليهِ ان لا يغضب من هذا الاقرار الذي هو افضل من خداعٍ مخجل لهُ ولها

وعاش فرنان وكرمانه بعد اشهر في باريز ناعمين ومختليين ومتمتعين بحبهما الصافي ثمَّ انعزلا الى فونتينبلو في المصيف الصغير الذي اشتراه فرنان عند مجيئهِ الى برينسن موطن ادوار

ومضى على كرمانه وفرنان سنتان كانا يأتيان فيهما صيفاً الى مستقرهما في فونتنبلو ولكن منذ ستة اشهر تغيرت الامور على كرمانه المسكينة حتى لو رفعتَ الستار المجلل نافذتها الشرقية حيث موجودة باقة زهر ارسلها لها فرنان يوم عيده ترى على ملامح كرمانه صورة يأْس اسود وتجري عينيها الكبيرتين واقفين كانها لا تبصر بهما وهي جالسة امام منضدة من خشب الورد عامدة رأْسها بيدها الشمال وممسكة بيمناها قلما وامامها ورقةٌ رسمت عليها فرنان ثم دارت براسها الافكار فلم تزد شيئاً على الرسالة وبعد هنيهة طرحت الرسالة وقالت

— ماذا ينفع ان اكتب لهُ واستوت على قدميها والقت نظرةً على الساعة ثم تقدمت الى النافذة حيث رأَت ازهار الباقة حانية رووسها فقطفت واحدة واشتمتها وتنهدت قائلةً مسكينة ايتها الزهرة انك تموتين مثلي وقد زال عرفك كما زال حبهُ لي فيا للاسف وبعدها تنهدت مرّةً اخرى ورفعت

عينيها الى السماء

ما كان احلى الحياة لو كنتُ سعيدةً

وارسلت دمعة على الزهرة التي بيدها وهي تنظر الى الشمس تتغيب ملتحفة بانوارها الذهبية وخارقة سهام ابصارها اوراق الاشجار الكثيفة كانها سهام نار على قلب المعذبة الاسيفة

الفصل الثاني

وخزات الابر

وكانت كرمانه نحوًا من الساعة السادسة جالسةً امام النافذة تتأمل غروب الشمس واوراق الاشجار التي اخذت يدا ايلول في نثرها وتتسلى بتعداد الاوراق المتساقطات كل هنيهة كانها تريد في ذلك دلالة على حسن او سوء الحظ. اذ اندفعت الى الامام واعارت اذنًا صاغية لصوت بعيد سمعتهُ وقطعت نفسها لتسمع بتدقيق ثم قالت

— ما غلطت اني اسمع صوت عجلة

وزاد اصفرار وجهها وخفقان قلبها

— وبقيت مدةً مستوية بلا حراك تبسم وتسمع الصوت المقبل ثم اسرعت الى الباب وقرعت الجرس بشدة فحضرت الخادمة

— هيئي المنزل واحضري على الفور عشاء انيقًا. واختلت في غرفة زينتها لتظهر جميلة امام فرنان . واما مريتا فاسرعت الى الشباك وقالت هل خطر الرجوع على بال سيدي فاتى بعد اشهر ولكن ارى ڤيكتور وكان ڤيكتور صاحب مريتا وسائس الخيل عند فرنان

على انَّ كرمانه لم تغلط وما ضرب قلبها الاَّ لمجيء حبيبها فوقفت العجلة ونزل منها رجلان وامرأة . فرنان ولوسيان درتول صاحبة الاميز وهو

منشيء جريدة وشاعر حظيت قصائده عند الناس واسع العقل مع صغر جسمهِ وضيق جبينهُ اسود الشعر رقيق الشفتين لهُ ابتسام معنويٌ وعينان ذابلتان . وعند وصولهم نزل لوسيان درتوا واخذ بيد السيدة ووقف منتظرًا فرنان وجوليا اوليفة وهي امرأة بهيَّة الصبغة مستطيلة الوجه ذات جبين ناصع وعينين نورهما ساطع وحاجبين اسودين وانفٍ رقيق يقرب سنها من الثلاثين صاحبة فهم وقوة ذكاء وادراك بالخفية

وبعد قليل رجع فرنان الى صاحبهِ وصعدوا جميعًا الى المنزل وراءهما كرمانه يتقدمون ولكنها بقيت منتظرة تلطف الاختباط الذي احدث بها مجيء فرنان حتى تظهر ساكنةً امام تلك المرأة التي كانت تدعوها صاحبتها وقالت بنفسها (لماذا فرنان اتاني بهولاء) ثم قربت بهيئة بشوشة الى الزائرين ومدَّت يدها الى جوليا ولوسيان وقدَّمت جبهتها الى فرنان الذي قبلها من راس شفتيهِ

— اشكرك يافرنان على هذه الدهشة اللطيفة واثني على محبتكما التي حملتكما على زيارة هذا المنفى وادخلتهما الى قاعة غريبة الفرش ثمَّ رجعت لتعطي بعض اوامر

وفي اثناء ذلك قال لوسيان لفرنان كنت تخشى ملقى محزنًا وقد لقيتها عكس ما ظننت ساكنةً متجمدةً

— لا ريب ان ذلك افضل من الدموع واقل تاثيرًا

— انَّ النساء كمراوح الهوآء فما لهنَّ فكرٌ ثابت . فالقت جوليا نظرة على فرنان وقالت

— بعض الاحيان . ودخلت كرمانه فقال لوسيان وهو يجذبها الى كرسيٍ قريبًا منهُ

— انكِ ابدًا لطيفة . فاجابتهُ بابتسام مصطنع

— الحقيقة خير من الاملاق . والقت بصرها على فرنان فلم تلتقِ بصره

لاهتمامهِ بغير شيءٍ

فقالت جوليا ان هذا المنزل بديع ولكنهُ منفرد مخيف

— عندي غدارتي وعند البستاني بندقية

— ذلك لا يطا من كفاية ولا يمحو الملل

— انّ تصوراتي وتذكراتي ترافقني

— ان تذكرات الاسف قليلة التسلية

— انا احبها واعيش بها . ورفع رنان عينيهِ على كرمانه بنوع حنون وقال . قد كنا سعيدين هاتمّ غير صونهُ

— اتريدين ان تشربي تبغاً

— اشكرك يافرنان قد كففت عن هذه العادة فقال لوسيان

— قد اصبتِ ان التبغ يوءذي الصدور اللطيفة . فقال فرنان

— اراك حزينة كانّ مجيئي لم يصفُ لكِ

— لم يصفُ لي . ان هذه لشتيمة

— اذاً فلماذا لا تسمين وقالت جوليا

نعم لنسر ونحب بعضنا بعضاً فقال لوسيان

لنحب بعضنا بعضاً او نتظاهر على الاقل بذلك فالمرجع الى شيءٍ واحد . . .

وفي اثناء ذلك اتت مريتا واعلمت بحضور العشآء فتبعتها الجماعة الى قاعة الطعام

وفيما هم ذاهبون قالت كرمانه مبتسمةً

— اياكِ ياجوليا اياك النزق فاننا مراقبون لكِ

— لَمَ لاَ وعلى يميني شاعرٌ وعلى يساري الشعر عينهُ . فصاح لوسيان احسنتِ فسلم عليها يافرنان ووقف فرنان بوقار . فالتفت لوسيان الى كرمانه وقال بصوت مضحك

— ان النزق يحسن لفرنان ولكن ليس لي فماذا تكون وظيفتي
— التي تريدها
— اعطيتني حق الاختيار فاخذ وظيفة فرنان
فسألتهُ كرمانه عن السبب وهي لاهية
— اعجبتني لانها احسن من الكل
— فصاح فرنان لا ارضى بذلك وساحاكمك اعليه
— قبل محاكمتي يجب ان املك شيئًا من ذلك العصفور النادر الوجود اي الحق فان الانسان اذا ملكهُ لا يعطيه فقالت جوليا
— هذه نكتة متكلفة . فارادت كرمانه ان تحادثهم لتقاسمهم المسرة
— ان النكت كالفرص لا تأتي الاَّ بالتكلف والعناء
ففال فرنان صدقتِ ولكن النكت والفرص تختلف عن النساء بكونها اذا امسكت لا تبقى باليد
فقال لوسيان
— لستَ يافرنان انيسًا للنساء
وكان لكرمانه شعر من اجمل ما كللت بهِ الرؤوس فالفت كتفها على جبهة فرنان
— ألي تقول هذا الكلام
—لا ياحبيبة . آه ان لكِ اجمل شعر رأيتهُ في العالم وقبَّل عقدة شعرها المتدلية على خدهِ اما جوليا فعضت على شفتيها وتظلمت في نفسها من الطبيعة التي ما جادت عليها الاَّ بقليل من الشعر فقالت لفرنان
— الله يعلم اذا كنت قد رأيت شعرًا من كل الألوان
— انني في حياتي لم احب الاشقر منهُ فشكرت كرمانه فرنان بلحظها عن هذه الوصمة التي رشق بها صاحبهُ وزاد حنق جوليا
فاجابت على قولهِ بارق منهُ

— لعلَّ خطيبتك سمراء فاصفرت كرمانه واجاب فرنان

— نعم ياسيدتي

والقى لوسيان على جوليا نظرة غضب ثمَّ عمَّ الصمت فخرجت كرمانه بدعوى سعالٍ اصابها وفي الحقيقة خرجت لتخفي دموعها وكانَّ جوليا لم تفرغ كل السمّ الذي كان تحت اسنانها لانها كانت عدوة كرمانه لانَّ فرنان فضلها عليها ثمَّ قالت

— انَّ من النساء من يعيش بالسعال ولا يخلو ذلك من فائدة .

فقال لوسيان

— انك رديئة جدًّا

— تلميذةلكَ وكاد لوسيان يجيب لو لم يفتح الباب وتدخل مريتا تدعوهم الى شرب القهوة فقام لوسيان الى منتدى البيت وجلس على كرسيّ واخذت جوليا ان تقلب اوراق كتاب لتصفو نفسها وبقي كلاها صامتين فافتكر لوسيان انَّ النساء يحسد بعضهنَّ بعضًا وان جوليا تحسد كرمانه على جمالها وهذه تحسد تلك على حسن حظها لانَّ فرنان تخلَّى عنها

وانا اجالس هذه المرأة التي اقدم لها ما تريد دون ان احبها ودخل فرنان دخلة كئيب فقال لوسيان

— لعلَّ كرمانه مريضة

— مريضه وانها تبصق الدم كعادتها كل ما ساءها شيءٌ فقال بصوتٍ محزنٍ

مسكينة هيَ

— كان يجب ان اعمل بفكري الاول فلاارجع الى هنا لانها تحبني واذا كنت لا احبها فما عليَّ ان اعذبها

— يجب عليك ان تعودها في هذه الايام بان تسلوك فاعلمها انَّك متزوج بعد اشهر ينهدم رجاؤها شيئًا فشيئًا ويمكنك مع ذلك ان تظهر

نفسك مأسورًا ولك على ذلك براهين عديدة مقامك وسياستك وانّ زفافك على ابنة اوسير مفتاح لدخولك في السفارة .

وليس الاّ الاغبياء لا يقدرون على ترك امرأة حينما يشاؤون مع ارضائها بكل ما يبقي العزاء في قلبها فقال فرنان

— اشعر بمصيبة تحلّ بنا اما موت كرمانه او قتلي بيدها

— انك ترى الاشيا مظلمة وانا اظن ان لا يكون شيء مما ترى وان كرمانه تحبك وما ذلك سبب لارتهانك فقد يحلف متوادان بالقيام على الولاء سنين عديدة ولا يمنعها ذلك من الانفصال بعد ايام او سنين فكم لك من السنين واياها

— سنتين ونصف

—هذا عهدٌ لا يجب ان يتجدد

— لا تطل الكلام عبثًا

— اذًا ماذا تريد. اني ارى الاشيا اكثر مما تراها وانني لم اعشق ولكن كانت جوليا متزوجة فقلت لها لو كنت حرة لعبدتك واذا زوجها بعد قليل مات فاسرعت اليّ وقالت هاءنذا حرة فسررت بها وفررت من وجه اسرتي فضحكت من فراري وسخرت مني طويلاً ومن ذلك العهد اعيش بلاهم قريبًا من النساء واتسلى بهنّ بلا عناء

— ولكنّ كرمانه عاشقة لي وهذا ما يقطع رجاي واريد ان اقسي قلبها عليّ باذلاً كل جهدي حتى كتبت لي الى باريز فلم اجبها والان تبدي لي الوداد فاجيبها بالجفاء

— كلُّ شيء زائل . فهزّ فرنان رأسهُ واتمّ لوسيان الكلام

—يا لك من احمق اظنها محكومًا عليها كل عمرها ان تجرّ وراءها ذيول حبك

— انت لا تعرفها تبقى معذبة اذا سافرت

— ما اكثر اوهامك ولكنها اذا سقطت مرّة لا تجدّد كشعر الشيوخ

— هلمّ بنا الى الطبق الاعلى فان النسآء ذوات فضول فلعلّ احداها تسمع حديثنا

فانقطع لوسيان عن الهزل

— اريد ان اسافر غداً والاّ ساعدتك على الخروج من هذا البيت

— انسافر جوليا معك

— الاّ اذا ابقيتها كرمانه وفي الجملة دع عنك الحب او تهلك

— سافتكر في امري ان الليل يؤتي المشورة

— ما ارى الليل يؤتيك الاّ مشورة سيئة ولما دخل فرنان الى غرفة كرمانه وجدها نائمة وجوليا قريبة من فراشها يتحادثان بصوت منخفض فافتكر فرنان بتصورات النسآء الوهنة وقال في نفسهِ قد صدق لوسيان بتسميتهنّ مراوح هوآء وقد اصبحتا بعد المعاداة آلف من شقيقتين

الفصل الثالث

السياسة النسائية

ان من اعظم مسرات العقول الصغيرة والمخلوقات الرديئة ان تعبث بالنفوس الكبيرة وتاكلها في بعض الفخاخ . وفي الغد سافر لوسيان درنوا وحده و بقيت جوليا عند كرمانه ولكنّ فرنان لم يفهم شيئاً من تجدد الصحبة وكان لكرمانه قلبٌ طاهر يمنعها ان تشك بالخيانة ولكنها عزمت على مراقبة عدوتها . ولما افاقت جوليا في الصباح عاد الى ذكرها ما اصابها امس وجعلت تسعى في الانتقام سعياً لاحدّ له ولا سيما في غياب لوسيان عنها

فصعدت الى غرفتها واخذت تمشي وحدها كاللبوءة المقيدة تتامل في تخطيط حرب وبقيت مختلية حتى دعيت الى الغداء فنزلت الى المائدة وسرت كرمانه لغياب صديقتها لانها ملكت حربها مع فرنان

على ان الوحدة لها جاذب سريّ للقلوب المتحابة

اما فرنان فلبث متأملاً في اضطراب احوالهِ وكيف يترك هذه المرأة المستولي حبها على قلبهِ وتمّ الغداء في الصمت وكرمانه مسرورة سعيدة وجوليا تارةً عابسة واخرى مبتسمة مما يدل على قرب العاصفة فقال فرنان. — انني اذهب اليوم راكبًا لترويض نفسي في البرية

وذلك ليختلي بنفسهِ ويعتمد على راي واحد فاجابت كرمانه وانا في تلك المدّة انام قليلاً لانني مستضعفة ولكن عفوكِ ياجوليا لم افطن لكِ

— لا تقلقي ياعزيزتي فانني قد وجدت رواية تهمني كثيرًا فاستريحي ولا يكن لكِ بال

— اية رواية تقرأين

— تأليف بلزاك عن المرأة في سن الثلاثين

— قد قراتها ولكني افضل (مجد وشقاء احدى المحبات)

— ان روايات بلزاك تسرني جدًا. ثم قام الجميع عن المائدة وتفرقوا وبعد دقائق تبعت جوليا فرنان الى الحديقة وتقدمت منهُ بخفةٍ وطرحت ورقة محكمة الطي في يده فقبل الورقة بعد هزةٍ خفيفة واخفاها في جيبهِ حتى تركتهُ كرمانه ففضها واذا بها هاتان الكلمتان

«اذهب الى مغاير فرنشار قرب الصخرة الباكية فاكون هناك واساعدك بمشورة جميلة »

صديقتك رغماً عليك

جوليا

فسال فرنان نفسهُ متحيرًا اذا كان يذهب و بعد ساعةٍ ادبر فرنان و بقي الصمت في البيت ونامت كرمانه مبتسمةً لانهُ قبلها واخذت جوليا تقرا ثمَّ استغرقت بالافكار و بعد نصف ساعة نامت كرمانه فاقبلت جوليا على راس اقدامها وامرت الكتاب امام وجه كرمانه فلم تتحرك اجفانها وخرجت من البيت مسرعةً وما زال فرنان يغدو و يعدو قبالة الصخور وهو متفكرٌ فيما ستقول لهُ حتى كاد ان يرجع لو لم يبصرها منتظرة لهُ على قمه صخرة عالية فترجل عن جواده وربطهُ بشجرةٍ واقبل عليها بهيئة ازدراء

— هاءنذا ياصديقتي الجميلة منتظرًا نصيحتك العظيمة وجلس على تلك الصخرة الملقبه بالباكية لانتزاف الماَء الدائم من خلالها فقالت جوليا

— يا فرنان دعوتني صديقتك سخرية وانا صديقتك اكثر مما تظن

— لا اشك ابدًا في اخلاصك

— اذن فاستفد من حكمتي . لستَ الاَّ ولدًا لا يعرف شيئًا من امور النساَء وقد اثبتَّ لي ذلك امس عندما اردت ان افتح لك بابًا للنجاة بتحريك حسد كرمانه ولكنك اسقطت الباب عليَّ فكاد ان يسحقني ولست مع ذلك شاكية منك ولو حسبتني رديئة حمقاَء لانك ما فهمت فكري وانا فهمت كل اميالك دون ان تشرحها لي بكلمة واحدة . اعلم انه صعب عليك اهمال كرمانه اذ لست تعلم كيف تنجو منها لانك شاب محب

— انا احب

— نعم انت واكبر برهان على ذلك ارتباكك في مسئلتك ولكنها لا تدوم فان املك قد عينت شهر نيسان القادم لزيجتك ونحن الان في اواخر ايلول فما يبقى لنا الاَّ بضعة اشهر ولست محسن استعمال الوقت كما قلت على ان لوسيان يريد ان تعوّد كرمانه على فراقك وما ذلك من واجباتك ولكنك بعدم اهمالها تبقى لها الامل باسترداد قلبك وغرامك

— لعلك مصيبة فاني اسأت العمل ومع ذلك فما يمنعني الان

عن . . . . . .

ـ يمنعك قلب كرمانه فانها بلحظةٍ واحدة تسد عليك كل ابواب الفرج

ـ فما عليَّ ان اعمل

ـ ان تصغى الى نصائحي بكل طاعة

ـ قد اتيت لهذا

ـ صدقت والاَّ لماذا مجيئك فاذن اظهر انك تحبني

ـ لماذا

ـ لتصلح ما عكست وانا تحت يدك وكرمانه صاحبتي فاي فرصةٍ انسب الك من هذه واذا اظهرت لي شدة المحبَّة والاحتفاء بي امام كل الذين عندك قتلت كبرياؤها عشقها فتطردك هي وذلك اقصى مرامك

ـ هذا سهلٌ عليَّ اما انتِ

ـ لا يكن لك بال عليَّ

ـ فتبغضك كرمانه

ـ لا باس اذا سبَّب ذلك سعادتك ثمَّ مدت يدها لفرنان فقبلها بشكرٍ وهو متعجب كل العجب منها

ـ عدني وعد شرف انك لا تبوح بما عزمنا عليهِ الى اي كان وانك لا تقلق شيئًا فيما اعمل لانَّ كرمانه ذات حيل يجب ان تحاشاها والحبّ صعب الانتقال

ـ اعدكِ باتمام كلما قلتِ

ـ انَّ مهنتك ستكون صعبة وستتعجب كرمانه من انقلابك السريع لانها لا تجهل ميلك عني والحسدُ يمنعها ان تنظر بتدقيق في الامر

ـ ان ميلك الى مصلحتي وغيرتكِ عليَّ تمخك قلبي . فضحكت جوليا من كلامهِ وقالت وهي تقلد حركات كرمانه

ـ خلِّ عنك الاملاق لانَّ امرأةً نظيري لا تعجبك اذ ليس لي تلك

الحركات التي تدهش ولا اعرف ان ارمق بمؤخر اللحظ ولا ذلك السعال الرقيق الذي تحسبهُ تنهد الظل . لكنّ لي صحة جيدة ومحبة خالصة فاذا ملت الى شخص لم اخفِ ما فعلت بي الاشواق ولم احنِ رأسي كالصفصاف المستحيي ليظهر جميلاً عندما ارفعهُ لكنني انظر الى من احب في وجهه . والتفت اليهِ التفاتة اخرجت فيها الشعاع من عينيها فجذبت قلب فرنان وكانت الشمس نازعة الى الغروب وملقية على شعر جوليا انوارًا من ذهب فقويت لحظات جوليا واحمرّ لونها الاصفر وظهرت لقوامها كلهِ هيبة من ابدع ما يتصوّر مما اثرّ في فرنان واظهرلهُ جوليا غير ما عرفها فاعجب بها وافتتن بحسنها

— انت ملاكٌ يا جوليا لا يعرفهُ من هو مثلي لا يرى فضيلةً الاَّ فيمن يهوى

فلم تستفسره عن كلامهِ بل ارادت ان تقلب معناه في عقلها بما يوافق كبرياءها وسقطت دمعتان على وجهها . فلم يفهم فرنان سرَّ تلك الدموع

— لا يجب ان اقبل ما تقدمت بهِ اليَّ لانهُ يكرهُ كرمانه بك على ان محبتكِ قد جرتكِ الى ابعد ما ظننتِ والان تندمين

ـ لا تعلم سبب تاثيري وان ما وعدتكَ اتمهُ واغتصبك لقبولهِ

ثمَّ وقفا كلاهما واخذا يمشيان فعادت جوليا على بدء الحديث

ـ لا تحزننَّ عليَّ فان الدموع التي رأيتها من الشؤون السارة للنساء لان طبيعتنا العصبية تدفع العواصف بالعبرات وليست مظاهرنا الاَّ اشائر قلوبنا وانت لا تكثر المديح لصداقتي فاني اعمل لنفسي

ـ بل انا يا جوليا . . . . فقاطعتهُ

ـ افهم مقالي يا عزيزي انني احببتك جدًّا ولولا اجتهادي في اطفاء لوعتي لشقيت في المستقبل ولم يبقَ لي من الشبيبة الا بضع سنين فلولا ذلك لفصلت عنكَ وعشتُ مدلهة

ـ بل تكونين جميلة في سن الخمسين •
— قدّر الله . ثم صمتا كلاهما
— فاحسّ فرنان انهُ استشار احدًا وانجلت جوليا في عينيهِ حتى لو كانت مزاياها في كرمانه لما تركها ابدًا وذلك لم يخف على جوليا لانّ فرنان امتلأ من الفتنة بها .فسالها الى متي تبقى عنده
— ابقى ما دام لكَ حاجةٌ بي اي حتىّ انجيك من نفسك
— انكِ اجود من ان توصفي •
— عندما تعشق حقيقةً تعلم ان احراق نهرٍ سهل عند العاشق لرضى من يحبهُ .
—لماذا الاهواء التي لا تناسب النواميس الاجتماعية تظهر فائقة الطبيعة
— لانّ المرأة محكومٌ عليها ان تهرب من الاهواء الغير التزامية واذا خرجت عن الهيئة الانسانية اخذت على كل اميالها وحسبت اماالها ذنوبًا عليها
وما زالا يتحادثان الى ان وصلَ فرنان قرب الحصان الذي صهل حين راى صاحبهُ مقبلاً . فقالتْ جوليا
— انهُ قد ملّ من الوحدة ولكني اطلت الاقامة معك
—الساعه دقيقةٌ معك
—ادعكَ واوصيك بالفطنة . فركب فرنان والتفت اليها
— نبدأُ الليلة ما عمدنا عليه •
اذا لم تعدل عنهُ
— لا تخشي فاني مطواع لك وسلم فرنان عليها وابتعد فاخذت جوليا تمشي بسرعة نحو البيت وهي تقول في نفسها (اليوم يبتدئ النزاع وسانتقم من احتقار كرمانه وكبرياء فرنان و يا لهُ من نصر اذا رات كرمانه فرنان يحبني • يكون ذلك بلا ريب شرف غير حقيقي ولكني اجني من ورائهِ تلك

الزهور الصفراء ذات الروائح البرية التي تنبت في قعر الوهدات) اما فرنان فحدث بهِ معها ما يحدث بالشمع في يد عاملهِ الذي يعطيهِ الصورة التي يستحسنها وافتكر ان الحب لا يدرك كنههُ وان وقوعهُ فيهِ كوقوعهِ في بئر وبقي متردّدًا بين حياته الماضية الملأَى من الذكر السارة وحياته المستقبلة الملأَى من البلبال وفي جوليا التي ظهرت لهُ نفسها طاهرة منيرة

الفصل الرابع

براز بين النسآء

عندما افاقت كرمانه عجبت من غياب جوليا والقت بصرها على الساعة فرأَت انها نامت طويلاً وللحال استدعت خادمتها لاشتغال بالها من جهة جوليا وسأَلتها عنها

— انها خرجت من هنا عشرين دقيقة بعد ذهاب سيدي

— دعيني الان وحدي

— الا تريدين ان تلبسي ثيابكِ

— لا

— أأخبر جوليا انكِ سأَلتِ عنها

— لاحاجة الى ذلك .

فخرجت مرينا وهي تقول ان سيدتها حسودة لجوليا اذ لم يخفَ عنها اضطرابها وانَّ جوليا خرجت وحدها الى الجهة التي قصدها سيدّها وبينما هي تفتكر فيما يكون من امرهم جميعًا دخلت جوليا وصعدت الى غرفتها محمرة اللون فنظرت اليها مرينا نظرةً ولم تكلمها ثم رجعت من غرفتها الى غرفة كرمانه ووجدتها نائمة فقالت ما اعمق نومها ثمّ جلست على كرسيها قريبًا من النافذة وفتحت الوجه الذي وصلت اليهِ ثمّ اخذت تقرأُ . وراقبتها كرمانه

في كل حركاتها فعلمت انّ وراء ازدهائها واظهارها انها ملازمة الغرفة امرًا ما و بعد دقائق رفعت كرمانه رأسها وقالت جوليا

ـ ما احبك للرقاد فانك منذ ساعتين لم تتحركي ·

— وما احبك للقرآة وما اكثر جلدك

— ان الرواية التي اقراها مهمة ظريفة

فصمتت كرمانه ولم تشاء ان تكذبها لتعرف حقيقة الامر ثمّ ذهبت الى قاعة زينتها

— اذاهبة لتغيير ثيابك

— نعم

— وانا ايضًا فان هذا الرداء ليس بجميل

— بل تراب الحديقة يضر بالثياب الانيقة

فقلقت جوليا لهذه الكلمات وبقيت كرمانه صامتة تفتكر والخادمة تمشطها

لعلّ فرنان خانني مع هذه المرأة

وانها حاولت ان تتطامن لاحتقاره وامتهانه لجوليا ولكنها لم تقدر على تسكين جأشها وخوفها من مصيبة محدقة بها لعلها تنقلها من السعد الى سوء الطالع ما بين الصباح فالمساء

و بعد قليل دخل فرنان فوجد المرأتين مستلقيتين كل على كرسي محاطتين بالازهار الاريجة والاشجار البهيجة تنسمان ريح الصبا داخلة من النافذة تحيي تلك الغرفة و ينظران الى انوار الشمس وهي قريبة من الغروب وكان اختباط الانفس شديدًا ولا سيما نفس جوليا التي نقلت لحظات كرمانه عليها حتى لولا الاصطناع كاد وجهها ان يبوح بما تكتمهُ في قلبها من النيران المحرقة

اما كرمانه فلم ترد ان تكشف السر الذي عرفته للعدوة التي وضعتها

في قفصها ولبث كلاهما في نزاع ادبي غريب يجتهد كلٌّ منهما ان تكتم امرها عن الاخرى

وقبل فرنان جبهة كرمانه ثمَّ يد جوليا فتحققت كرمانه ظنها من حيث ان فرنان لم يتسامح قط في هذا الاحترام نحو جوليا واحمرت هذه فرحًا لاصفرار تلك ترحًا ولم تتمالك ان قالت له

— قد رجعت متاخرًا جدًّا

— لاني ابعدت المسافة في البرية

فاضطربت كرمانه لتلعثم فرنان بالجواب كانها انحلت قواها فسأَلها مرتعشًا عما اصابها

— نوبة ضعف قد مرّت فلا باس ولكن هل سرك المستنزه

— ان غابة فونتينبلو جميلة وكلما خطا فيها الانسان خطوة وقع على شيء جديد مبهج

والتفت الى جوليا ببصرهِ وبقيت كرمانه مختنقة بالحسرة لا تستطيع النطق اذ قرع جرس العشآء فمرّت جوليا وكرمانه وفرنان الذي اظهر سرورًا لا يوصف على المائدة واقتبل رشقات جوليا في الكلام كانها اسباب فرح بينما كرمانه لاهية في نفسها تسمع وتعي بكل صبر وتفهم معاني لحظاتها كانها غير حاضرة حتى اخذ فرنان بالحديث عن النسآء

— ان للنسآء على الرجال فضل الثبات لان المرء ذو مطامع عديدة ولا يقدر ان يصبو دائمًا الى موضع واحد لانَّ امياله تغير طبيعته كل ساعة ولكنَّ النسآء ثابتاتٌ .فاجابت جوليا

— ان للجنسين خصائص مختلفة فيجب على كلٍّ منهما ان يسامح ويحتمل ما لا يقدر على ردّهِ وكانت كرمانه تخشى ثمَّ تامل ان فرنان ليس صعبا عليها قيادهُ وانهُ لا يمكن ان يفضل عليها تلك التي خاصمها كل عمره فلا يسالمها قلبهُ ورغماً على كل اعمال فرنان بقيت تحبهُ لان الحسد يزيد الشهوة في اعين

النسآء وتزيد قيمة ما يتنازعن لاجلهِ بما يحرك فيهنَّ من العواطف المختلفة كالخوف والامل والمحبة وما نسيت كرمانه خطيبة فرنان حتى وقعت مع جوليا التي زاد قلقها وغيرت احوال عاشقها . ثم نهض الجميع الى المنتدى فجلست جوليا على البيانو وجلس فرنان وكرمانه بينهما واخذوا بترتيل قطعة موسيقية من احسن القطع فالتفتت جوليا الى فرنان واذا بهِ مفتون متاثر كل التاثير كانَّ قلبهُ عاد الى قلب كرمانه الطافح بالمحبة فقامت واختلت في غرفتها تفتكر انها غير قادرة بل انها تنسحق كالفلك الضعيف بين هاتيك الصخرتين

وما زال فرنان بين طريقين لا يدري في ايهما يسعى لان جوليا اختطفت قلبهُ حتى جعل يحارب نفسهُ للتملص منها غير انهُ نذر نفسهُ بانهُ اذا خان كرمانه احتقرتهُ والاحتقار يقتل الهوى فينجو من كليهما

وكان لفرنان ام ذات فضائل شهيرة امتازت بها عن سائر النسآء احسنت تربيتهُ وعودتهُ على طاعتها حتى ولم يصعب عليها ان تجعلهُ يعول على الزيجة وتنشلهُ من الورطة الساقط بها

وان فرنان ابصر ذات ليلة جوليا منفردة في ردهة الدار فتقدم وقبلها في جبينها اذ سمع صوت اقدام كرمانه فخرج من باب اخر ولقيت كرمانه عدوتها جوليا وحدها تلوح على وجهها دلائل الفرح والنصر فدلها قلبها على شيء يخشاهُ ولبثت اعينها شاخصة باعين جوليا ونفسها تختبطان وتخرج النار منهما حتى نكثت جوليا بصرها فجلست كرمانه قبالها وقالت بصوت وقور

— يجب يا جوليا ان نشرح صدورنا اذ لا يليق بك ان تخدعيني ولا بي ان احتمل مكرك

— ماذا تعنين بذلك

— اصغي اليَّ اني غير راضية عنك وحريتي تمنعني ان اكتم عنك ان

الحب فيَّ هو الحب بحرارة حسده ولم يصبني من احدٍ جرح في قلبي الم من الذي رميتني بهِ منذ ايام وانت فما انت محبة بل منتقمة

ماذا صنعت بك قد كان يجب ان تكوني انا نفسي لتعلمي كم تضربين لي اعني ان محاورتك فرنان الذي استنكرت سلوكه معي في هذه الايام تؤذيني فالى ابن اوصلتهِ وما مقصدك

فعجبت جوليا من هذه الفجاءة الغير المنتظرة وحاولت ان تكسب من الوقت لاجابتها فقالت

— لست افهم لغة السمك فاوضحي الاشاره

— هاك شرح فكري كلهُ لتفهمي . ان النسآء عادة تمثل امام الرجال بهيئة انيفة وتقبل محبتهم دون ان تسالها واجدك ياجوليا انك لاتتصرفين مثلنا بل مثلهم واذا لم تكن لك قوتهم فعوائدهم . فاحمرت جوليا لهذا الكلام والقت على كرمانه بصر غضب ولكنها اجابت بصوت هادي

— اتحاسبينني ابدًا على ملاطفتي لفرنان انك تظنيني امرأةً بلهآء ولست عند ظنك ولي ان اجرب امانة عاشقٍ لي دون ان اتنازل لاني لا اصطفي اول من عرفت ولاني شابةٌ فلا اخشى على نفسي قد اضلك حسدك وانتِ تعشقين على جهالةٍ ياعزيزتي . واظهرت جوليا في كلامها المسدد كالسهام طمأنينة لا توصف فاحتدت كرمانه بشدةٍ وراجعت تذكارها عن حياة جوليا لتكشفها لها فعادت هذه على كلامها

— اعرف انك ارفع مني قدرًا من كل الوجوه فلا افهم كيف تخشين مني انتِ اجمل نسآء العالم وانا غليظة القامة قوية الصحة انتِ شابةٌ ولست شابة واعلمي انني آسف لما يحدث بيننا لاني اكبر من ان نقهرني خصمة ولا سيّما خصمة تلتجي اليَّ لتغلبني . فجرحت كرمانه في قلبها هذه الكلمة الاخيرة وقالت بصوتٍ مرتجفٍ

— والخلاصة انحبين فرنان

— لا حقيقةً لا

— انا احبهُ حتى فقدت الراحة من اجلهِ وانت فكوني قاسيةً باردة غير مهتمةً لهُ

فاجابت الى ذلك جوليا باشارة تهكم مضحكة مما زاد حنق كرمانه فقالت

— اتظنين انك تعبثين بي كما تشائين ولكن قد اخذت في الفخ وقد عرفتك قبل اليوم فصبرت لارى النهاية اتنكرين انك منذ ايام تركتني نائمة واختليت مع فرنان مدة ساعتين وقد رايتك حينما رجعت وتناومتُ فجلستِ على كرسيك واظهرت انك لم تخرجي من الغرفة

— ان هذا تجاوز الحدود وما ادري الشي الذي يوصلك الى هذه الغرابة اني تركت غرفتك وهل انا صبيةٌ هنا حتى لا اخطو خطوةً عنك الّا تشتبهين بي كان الاولى بك ان تستدعي طبيباً ياعزيزتي لانك مريضة

— كنتِ مع فرنان فلا تتكلمي

— سليه عما شئت لاني لست مستعدة لاجابتكِ وعلى صاحب الشك ان يراقب فاذا تحقق تكلم واعجب كيف الحب يذهب بعقل امرأة مثلك واسعة العقل

فاستولى الحزن على قلب كرمانه وبكت امر البكاء

— يا ربي ما اتعسني فتقدمت جوليا نحوها

— هذا جنون فلا تتكلم عنهُ

— لكن يجب ان تسامحيني لاني معذبةٌ جدًّا وتعرفين اني لا اعيش بعد فرنان واني فاقدتهُ لا محالة

— وهل تكونين عاشقة لهُ بحيث لا تعوقك العوائق عن دفع حبه

— نعم احبهُ واحبهُ لاني اسرٌ بهواه

فرجفت جوليا اذ رأت حبها شيئاً لا يذكر امام كرمانه وقالت بصوت بارد

— ما اشفقني عليك

— اه يا جوليا لو كنتُ جميلةً وغنيّةً كما يريد فيرضى بي

ولبثتا كلتاهما صامتتين هنيهة حتى تلطفت تأْثيراتهما فحنت جوليا على كرمانه ولكنها فطنت لانتقامها فشددت قلبها ودفعت الضعف عنها ولما دخل فرنان اخفت عنهُ كرمانه ما حدث بينها وبين خصمتها فافتكرت في نفسها ان الرجال يخونون النسآء اذا خمد حبهنّ في اكبادهم ولكنها قالت (ان فرنان لا يدرك غور الاسف فلعلهُ يحسبهُ نتيجة الحسد)

الفصل الخامس

المحبة دون محبة

في الغد افاق فرنان بكرةً واخذ يستعد للذهاب الى مصيد دعاه اليهِ احد اصحابهِ فسالتهُ كرمانه

— متى نعود

— نحو الغروب لاننا غادون على تناول صبوح في البرية وتعلمين انّ الصيد لا يعرف لهُ ميقات .

وبقيت كرمانه تنظر اليهِ كاسفة البال حزينة القلب كانهُ مزمع على سفرٍ طويل وتذرف دمعًا سخنيًا فتقدم منها فرنان وهي ممتدة على الفراش فابصرت على صفحة ذراعه البيضاء كالثلج خالاً اسود فقبلتهُ بلطفٍ وسقتهُ بدمعةٍ من عينيها

— مالكِ يا كرمانه تبكين .

— لا اعلم .

ولم يهتم لحنوها لانهُ حسبهُ انفعالاً عصبيًا ولما فرغ من الزينة قبل ثغرها قبلةً رقيقة حبية قبلتها كرمانه كصدقةٍ منهُ وقد طالما منعتها كبرياؤها

ان توبخهُ على فتوره ولكنها في ذلك اليوم قوى على قلبها الهوى فضمتهُ الى صدرها طويلاً غافرةً لهُ وفي ذلك العناق حاولت ان تبصر نورًا من الحب على وجه فرنان ٠

— ياحبيبي لو تعلم كم احبك

فشكرها بابتسام لطيف لا اكثر ثمَّ اخذ كمتهُ وخرج قائلاً موعدنا المساء فلم تقوَ كرمانه على اجابتهِ بل ارخت يدها على الغطاء وبقيت بلاحراك جامدة البصر تجري من عينيها دموعٌ تمرُّ على خديها و تتساقط كالدرر

— اللهمَّ الم يبقَ ميلٌ في قلبهِ يا للاسف . ولبثت راقدةً غائبة عن الرشد تبكي السعادة المفقوده حتى قرع جرس الغداء فلما رأتها جوليا داخلةً الى قاعة الطعام استعدت للعراك وتراشقتا من الكلام بسهام اشارات لطيفة لم يفهمها الاَّ هنَّ ٠

و بعد الغداء صعدت كرمانه وجوليا لشرب القهوة ثم قالت كرمانه و يدها على شعر جوليا

— متى تسافرين

— لمَ هذا السؤال

— كان يجب مما حدث البارح ان تفهمي دون شرحٍ جديد ان بقاءك هنا لا يطول

— لم تذكري لي شيئًا من هذا بل ظننت ان تلك الاوهام التي مرت برأسك لم تعد

— نعم عادت وقد عزمت ان ادخل في الراحة التي احتاج اليها

— اذلك ذنبي اذا كان فرنان لا يحبك

فاثرَّت هذه الكلمة الرديئة في قلب كرمانه وكشفت لها سواد قلب خصمتها التي علمت ان حيلها فقدت الثمر فانتصبت امامها كلبوة مجروحة

— أانتِ الدُّ اعدائي وتهربين لاني لا اريد ان ترتوي بآلامي ابغضك

وتبغضينني

ــ صدقتِ ابغضكِ ولا حد لقلاي فاعرفيني اني ولدت حسودةً كما ولدتِ مخلصة ولذلك اكرهكِ انتِ تحبين فرنان وابغضكِ لانهُ اهانني ذات يوم من اجلك ابغضكِ لانكِ في زماننا المرأة المشرَّفة المكرَّمة التي يتغنى الشاعر بجمالها وتمثل قدوةً للنسآء بركزها ورصانتها ولانك تحبين حبًا صادقًا ثابتًا ولم يحظَ احد مثلك عند عالمنا الذي لا يملاءُ احد عينيهِ عادةً .ولانك مالكة شابًا جميلاً اما انا فما لي من ذلكَ الاَّ خطيب لا شرف لهُ ولا مال الا ما يدعي واعيش مقلقة بينما انت ناعمة افهمتِ الان افهمت

— هذا اذن سر بغضك لي وكيف تجسرين ان تذكريه

— اقرُّبهِ اذ قد اتعبني الريآء واوهن ظهري فانقوَّم الان واخاصمك

— والان ما قصدكِ اتريدين سلب فرنان لي انتقامًا منيّ

— لا تأْملي أن اظهر لك مقاصدي في النقطة التي نحن فيها .

— ليس صعبًا اكتشاف مقاصدك فاسمعي مقصدي انا الذي لا يرد اذا لم تسافري بطيبة نفس اكتب الى لوسيان فيرجعك لانكِ مضرة وما لك عندي بعد حرمة ابدًا

ــ تريدين الحرب فالحرب وكل الوسائط فيهِ مقبولة على شرط ان تنتصر احدانا

وخرجت جوليا فظلت كرمانه اكثر النهار جالسةً على كرسيها بلا حراك لتسكين جأْشها ناظرةً من خلال الغيوم الساترة لها السعادة السابقة ووجه فرنان متبسماً لابتسامها

ــ لو كنت شاعرة لصنعت قصيدة ارثي بها نفسي ولكن ليس لي الاَّ البكا

ولازمت غرفتها حتى المسآء فقدم لها العشآ ولم تاكل لانحلال قواها

ونامت حالمةً بالاجتهاد عازمة عزائمٍ قوية ولاعنة حياتها الساكنة التي ما تأملت فيها باعتبار

وفي اثنا ذلك كانت جوليا تتامل كيف تخرج ظافرةً من ذلك العراك الذي استوجبت سرعة انهائهِ لطرد كرمانه لها ولم يبقَ الاَّ ليلة

واشتعلت فكرتها بما تستعملهُ لحسن الختام مع ضعف فرنان الذي عاد الى حب كرمانه ولكنها ذكرت القبلة التي اثرها بقي حيًّا على جسمها وحسبت ما صدر من فرنان هفوةً خفيفة فتشجعت واملت بالفوز وتضاعفت قواها وفكت القيود من يديها عازمة على تجاوز الحدود التى عينتها لها الفطنة

وافتكرت ان الذريعة الوحيدة لترجع فرنان اليها ان تتظاهر برفضهِ وكتبت اليهِ هذه الاسطر

« قد مرت علي حادثة مع كرمانه تجبرني ان اتركك دون وداع اذ»
«لو مددت يدي ليدك لشق عليها الجسد لانها ترى وحوشًا في ذرة الماء»
«وهي قانطة لما التحق بها من الاكدار التي لا يصعب ادبارها على كثير»
«من النساء ولها بك غرام لبوَّة ضارية فاحذر ان أُفترس نعم اعدل»
« عن الحب وعن هذه الالعوبة المضحكة التي اجريناها كعلاج لانها ء »
«عمومنا وقد خلا الغرض والعوبتنا لم تشفِ العليلة واظن اننا نكاتا الجرح»
« واضرمنا ما حاولنا ان نطفي

« ان صاحبتك لخليقة ان تَعبَد لانها تحبك حبًّا لا يوصف وعشقها»
« لك متراس رفيع قوي لا يفوقها الاَّ جناح نسر او ملاك وما انا الاَّ»
« امرأةٌ وقد رايتها تبكي بكاءًا وهن عزائمي فاسافر خجلةً لاني ما نفعتك بشي»
« اشفق على كرمانه واعجب منها ولكنني لا افهم داخلها قد جعلت »
« الحب ديانة لها والحب كافر كل يوم لهُ دين وقد وجدت »
« منك الهًا اما انا فلم اجد للآن رجلاً وقد اجبرت على تزيين »
«الاصنام كلما اردت عبادتها ولكنني عبثًا البستها ذهبًا وزمردًا وارجوانًا فلا»

« بزال داخلها من الطين والجفصين واذا كنت مرارًا سجدت امام اولئك »
« الاعدام فقد وقفت بعدها ضاحكة منها هازئة واني لم احبب قط حقيقة »
« لاني لم يفهم قط امري ولا احببت كما اردت على انّ قلبي خليٌّ حتى انني »
« مرارًا احببه بما حيّ بهِ في الماضي واشرب كل ما يسكر بشهوة واعض »
« الثمرة اللذيذة التي لا يعرف عبقها الطيب »

« فيا لي من امرأةٍ مضحكة اتكلم عن كل شيء ولم اعرف شيئًا من »
« العواطف ولا احسّ بها واتلون اشكالاً عديدة وليس لي شكل وانني »
« ساحرة ساخرة لا تستحيي ولا تحسب للعاقبة ومع ذلك لا نعلم من »
« اموري الاّ ما اريد ان نعلم من الحسن والقبح ولكن ما هو اكيد انني اقدر
« على ما اريد بطيبة نفس ولي عيوب اكثر من الحسنات وكلام اكثر »
« من الافكار ومع ذلك استطيع ابرام خطيبتك واذا كنت تضحك غير »
« مصدق فانا اضحك ايضًا وعليك السلام »

جوليا

وقبل طي الرسالة قرأتها ومرّ في عينها برق امل بالخير ثم ختمتها واقفلت عليها درجها وذهبت تستنشق النسيم الصافي في الغابة حتى خيم الظلام فعادت واختلت في غرفة مواجهة لغرفتها وخلعت ثيابها فكان جسمها العجيب ابيض كالثلج واجمل من اجمل تمثال كيانًا وضياء ثمَّ اغتسلت وخرجت من الماءَ والتفت برداءٍ ناعم واستعدت على زينة غير دقيقة ثم تجلببت بقميص من الحرير اللطيف ارق من نسيج العنكبوت واتمت لبسها بالطف واصنع ما يكون ولما فرغت مثلت امام المرأة فابتسمت لنفسها وقالت ينقصني شعر كرمانه و ينقصها لون شعري الجميل وضفرت شعرها لافة له باحسن نسق و بعد دقائق برزت بين الاستعارة والحقيقة جميلة والتفت بدثار حرير ابيض رقيق ثم ذهبت الى قاعة الطعام فجلست وحدها على المائدة لعدم مجيء كرمانه بدعوى انها مريضة و بينما هي تاكل رجعت مريتا من عند

سيدتها رادةً كل ما حملت لها من الطعام لانها لم تستطع ان تذوقهُ

— ان سيدتي لم تاكل فالظاهر انها مريضة

— نعم قد تغيرت منذ ايام

ثمَّ فتحت كتاباً لتقطع الحديث وبعد العشاء رجعت الى غرفتها ثمَّ اختلت برشاقةٍ عجيبة

— لا شك انها نائمة ودخلت في غرفةٍ كان يقيل فيها فرنان بعد الغذاء وطرحت رسالتها في علبة تبغ لم يكن بدٌّ لهُ ان يفتحها عند وصولهِ وعادت الى غرفتها وجلست امام نافذة تقرا لتتسلى حتى قرعت الساعة التاسعة وكان الخدم نياماً والهواء مع سكونهِ يحرك الاعصاب اذ سمعت صوت اقدام فاحست بمجيء فرنان واقفلت النافذة واغلقت الباب بحيث لا يسمعها ولا يراها

ولما وصل فرنان دخل الى قاعة الطعام فطرح بندقيتهُ وجعبتهُ الممتلئة من الصيد لان الحظ واتاه في ذلك النهار وكان قد اكثر شرب الخمر حتى عطش عطشاً شديداً لم يروه الماءُ وان عقلهُ كانت قد لعبت بهِ الخمر فصعد متعثراً على السلم ووجد امامهُ باب جوليا مقفلاً وضوءاً طفيفاً داخل الغرفة فدخلها واذا بجوليا ملقاة على الفراش اعدل من قضيب البان واعجب من بديعات الدمى فتقدَّم اليها ورأَى ذراعها ساتراً رأْسها وعينيها مغمضتين كانها مستغرقة في النوم وجبينها لامع في ذلك الضوء الضعيف فحميَ دمهُ وتجددت عواطفهُ التي اوقدتها فيهِ جوليا وقد شجعهُ سكرهُ وعدم حراكها ثم القى شفتيهِ على شفتيها فاظهرت انها افاقت واسمعت صوت دهشةٍ خفيفة

— أأنت هنا قد كنت حالمة بك

فلم يجب فرنان بل لبث ناظراً اليها معجباً بها وهي تتأمل بخديه الاحمرين وصفحتهُ النيرة

— مالك يافرنان

— اراكِ جميلةً جدًّا

— ايها المجنون لا تنظر اليَّ هكذا والاّ اجن

فجذبها اليهِ فتملصت منهُ وقالت

— اني مسافرة غدًا

— أأنتِ مسافرة

— الم تقرأ رسالتي

— اية رسالة

— انني مسافرة غدًا وسنفهم لماذا افرمنكم عند تلاوة الكتاب الذي تجدهُ في احد ادراج غرفتك من الجهة الشمالية

— وكنتِ مسافرة دون ان تعلميني فلمَ ياردية

— ولكن مالي اراكِ هنا في هذه الساعة

— لاني عند دخولي رايت نورًا في غرفتك فقرعت الباب ولم تجيبي فدخلت ورايتك نائمة فقبلت ثغرك المرجاني . ثمَّ قبلها مرة اخرى وامسكها بذراعيها واذا هو يمسك جسمها اذ لم يكن عليهِ الاَّ قميص واحس بارتجافاتها التي حدثت من فرط انفعالها لا من نفارها ولكنها وقفت بغتةً واتجهت نحو الباب فظنها هاربة فركض ليغلقهُ غير مفتكر بالصوت الذي حدث

— تريدين الفرار مني الا تحبيني

واخذ بيدها واجبرها على الجلوس

— اتحبيني ام لا

— احبك يافرنان احبك

— ما اجملكِ ما اجملك احبك من كل قلبي

فدُفع الباب ثمَّ سمعت سقطة جسم لم ينتبه لها احد منهما

الفصل السادس

وكانت كرمانه حاملة فرأت في حلمها امرأة لابسة ثوبًا قاتمًا متطوية الجسم كالحيّة حاملة سيفًا بيد وجارة فرنان بالاخرى ومتقدمة نحوها باعين تحدر منها النيران ولبثت كرمانه ملتفة بفراشها لا تجرأُ على الحراك ولا النطق بكلمة فسلمت المرأةُ سيفها الى فرنان ليطعن كرمانه فاطاع مبتسما واحست كرمانه ان السيف غرق في جنبها ثم تغير المشهد اذ غابت جوليا وبقي فرنان جاثيًا على قدم فتاةٍ ذهبية الشعر مكللة بالغار لحظها كلحظ الملاك خطت بيدها على الحائط ثلاث كلمات ٢٣ اذار ثم اختفت فمدَّ فرنان يديهِ مصفر اللون ووقع كانهُ مائت

فافاقت كرمانه مدهوشةً صارخةً صوتًا عظيماً وقلبت طرفها في كل الغرفة ثم قامت واوقدت شمعات ونظرت الى الساعة فراتها نحوًا من العاشرة وفتحت نافذتها قائلة قد قارب فرنان من الرجوع لو كان هنا لشجعني بعد هذا الحلم المفزع ما معنى هذا التاريخ ٢٣ اذار أأنا مجنونة لاخشى من منام ولكنني قد لحظت ان هذا التاريخ قد جرَّ حوادث هامة في حياتي فان ابي قد تزوج في ٢٣ وفرنان جاءَ اليَّ في ٢٣ ونحن اليوم في الثالث والعشرين من الشهر وبينما هي في هذه التصورات سمعت صوت باب يقفل فظنت فرنان قد رجع فخرجت للقائهِ واسرعت نحو السلم اذ اوقفها صوت سمعتهُ فالقت اذنها على باب غرفة جوليا وسمعتهُ يقول لها

— اتحبينني

وصوت جوليا يجيبه احبك واصوات القبل فسقطت مغشيًّا عليها بعد ان القت اصبعها على مطرقة الباب وبعد دقائق خرج فرنان فوجدها مطروحةً على الباب ففهم ان امره قد عرف فتناولها بيديه

مصفر اللون مثلها وحملها الى غرفتها ووضعها على الفراش واخذ وحده يستعمل ما يجب من العلاج لافاقتها الى ان زال العارض بعد دقائق خاف فيها فرنان ان تكون قد ماتت فتنفس فرجًا ثم فتحت عينيها فابتسم ونسي سبب غشائها فسأ لها كيف حالها ولكنها احدقت بهِ مليًّا ثم قالت لهُ بصوت منقطع صوت احتقار ضعيف دعني ولا تمسكني فانك ترهي وادارت راسها الى الجهة الاخرى

ففكر ان ينطرح على اقدام كرمانه ويستسمح منها ولكنهُ رجع الى الورا خجلاً قاطع الرجاء من مرضاتها ماذا يفيد الان حبي لها وقد خمدت ناره في فؤادي وان لها حق التوبيخ فعليَّ ان احتمل اخنباطًا اليما وادفع طوفان ادمعٍ فلا نضع فرصة غضبها للفرار منها

وعزم ان يسافر الليلة نفسها فترك غرفة كرمانه لا يجرأ ان يدبر راسهُ والزم مربيتا ان تبقى عند امرأته وايقظ ڤيكتور ليعد العجلة وحينئذٍ عاد ورقش لكرمانه هذا الكتاب مستعذرًا اليها مدعيًا ان ما حدث منهُ هو نتيجة هوى قويّ عليهِ

«لا يسعني يا عزيزتي كرمانه ان استميح صفحكِ عن زلتي فانها»
«جسيمة ولكني لستُ الهًا بل انسانًا والانسان لا يستطيع دائمًا ان»
«يخمد حرارة دمهِ فانهُ اذا حمي تضعضع العقل وجنّ الحكيم لثورة الحواس»
«ولعلي لست مخطئًا من حيث قذفتيني محتقرة وجثوت على اقدامك فنلت»
«النفار عوضًا عن الرضى وما ذلك ذنبك لانك كاملة فلا تتنازلين لهذيان»
«بعض النسآء التي تميل ميل اهوائنا وقد قلتُ لكِ انك لست كالنساء»
«التي عرفتها وقد تأملتك في السكينة فسجدتُ لكِ كما اسجد لالهة»
«الحب فاغفري لي يا كرمانه لستُ مستحقًا لكِ والكمال يوجب المعذرة»
«واني لاشكركِ ابدًا على السعادة التي منحتني اياها ولن اجدها بعد ولا»
«يمكني ان اخفي عنك فرط ما تمنعت لاجابة طلب امي بان اخطب»

« غيرك امرأةً لا احبها ابدًا ونفسي محرقة اكثر من نفسك لخشيني على »
« دستقبلي ان يسوء وقلبي ان ينسحق بعدكِ فعليكِ السلام يا كرمانه »
« دومي على العهد ما دمنا محافظةً فالحرُ من دان انصافًا كما دينا »
« واسافر حزينًا ان لا اجسر على وداعك فعليك السلام » فرنان

و بعد فراغ الرسالة وقع القلم من يدهِ فاراد ان يعيدها ولكنهُ لم يفهمها لتضعضع رأسه من الخمر فنام نومًا عميقًا ثم افاق وسلم الرسالة الى مريتا واوصاها بان تحفظها الى الصباح

وقبل ان يركب عجلتهُ اوقفتهُ جوليا واختلت بهِ وقالت لهُ

ـــ أأنت مسافر

ـــ نعم

ـــ وانا

ـــ ياعزيزتي لا اقدر ان اخذك معي لان هذا يسيء بنا ظن الخدم الذين يجهلون مسألتنا وحينما اصل الى فونتينبلو ارسل لك عجلة تسافرين بها حينما تشائين

ـــ في اقرب وقت وفي اول ساعة

ـــ الان الساعة احدى عشرة اتريدينها الساعة السادسة صباحًا

ـــ نعم تمامًا

ـــ فاذن نحن على عهدنا

ـــ متى اراك

ـــ سأكتب اليكِ

ـــ وهل افتكرت في الكتاب فاجاب فرنان مفتكرًا انها تعني الرسالة التي ابقاها لكرمانه

ـــ نعم كل شيء مهيا

ـــ استودعكَ الله . . . لوقت قريب

— نراكِ بخير يا عزيزتي وقفز برشاقةٍ الى عجلتهِ

وعذب الوقت لفرنان بابتعاده عن ذلك البيت وظهر الليل لهُ بنجومهِ اللامعة اجمل من النهار ثم لاح القمر من وراء الصخور وملأ الكون نوره الاصفر ونسمت لفحة هواءٍ كانها تنهد عظيم

واسمع فرنان حصانهُ ذعيق سوطهِ فجعل ينهب الارض نهبًا وكلما بعد فرنان يتبسم مبتهجًا

الحمد لله وللفرار

وبقيت كرمانه كل تلك الليلة في تحدر عظيم لا تبدي حراكًا ولا تنطق ببنت شفه ومريتا ساهرةً عليها خائفة من صمتها الى ان اصبح الصباح فالتفتت كرمانه الى مريتا

اطفي هذه الانوار وافتحي الشباك فاطاعت مريتا

— أأنت احسن ياسيدتي

— احسن والحمدُ لله

— فاذن اقدر ان اخبر سيدتي بكل شيء وتعدني ان تسمع صابرةً

— ماذا تخبرين

— سيدتي اسألك ان لا تتأثري

— تكلمي بما تريدين

— ان جوليا قد سافرت منذ ساعةٍ

— فتنهدت كرمانه وانفرج غمها

— ان سيدتي سرّت لهذا الخبر ولكن لا اظن الاخر يسرها ان فرنان قد سافر ايضًا فدهشت كرمانه وقالت

— اسافر معها

— لا ياسيدتي ان سيدي سافر البارح مساءً نحوًا من الساعة الحادية عشر وابقى معي رسالةً واوصاني ان لا اسلمها لكِ الاّ عندما تستريحين

وهذه هي

فاخذت الرسالة بيد مرتجفة وقرأتها بسرعة فاحست بهزة كالتي اصابتها امس عندما وقعت على باب جوليا . وفهمت ان سبب كل ذلك الانزعاج والنعاس الشديد انها حبلى وقد طالما شعرت بذلك فلم تصدقهُ بل نسبتهُ الى تشوش في صحتها ولم يعد هذا الرجآء خائباً كما كان قبل . على انَّ شدة حزنها وفرحها سكنا جأشها فافتكرت ان اشكرك اللهمَّ يا من نظر الى شقاي فمنحني سروراً لا يوصف وفي ذلك الشكر الروحي مرَّ بفكرها ان فرنان يعود عن مقصده اذا علم بان لهُ ولداً ومن يدري اذا كان عدم اهتمامهِ لا يتحول الى عبادةٍ لها لما في فرنان من الطيش وجودة القلب ولو انهُ خانها من اجل امرأةٍ بلا حياء جرتهُ الى الاثم بخداعها ولم يجب لطلبها الاَّ لهوًى زال كما ذكر في رسالتهِ وانَّ ذلك الزواج الذي اكره عليهِ لا يتم عندما يعلم بالاتحاد الذي يضمهُ الى كرمانه وتخلصهُ من خطيبتهِ التي لا يحبها وهذه التصورات انشأت فيها اختلاطاً لا يوصف من الحنو والامل والغيرة والسماح

قد قرأت طويلاً الرسالة وعلمت ان سقطتهُ كانت ضعفاً منهُ وعجبت كيف تأكدت الامس خيانة فرنان فحزنت وفي ذلك اليوم ازال كدرَها احساسُها بالحبل وكان حلمها يعود دائماً الى ذاكرتها ويملأُها من الامل

الم ترى بعد حادثة جوليا المفزعة انَّ فرنان ركعَ امام فتاةٍ كالملاك ثمَّ عدت شهور حبلها وظنت ان ولدها يكون مخلصها من كل احزانها ويغير اسفها الى مسرة ولكن غيمة مرتْ على جبهة كرمانه وتذكاراً جاز عقلها كسهم من نار لما انها رأت فرنان ماداً يديهِ للفتاة وعند مرورها اما مهُ وقع ميتاً

وما زالت تخشي من تمام الحلم كما رأتهُ ان يخجل فرنان من تركهِ زوجتهُ ويقتل نفسهُ حتى صبرت نفسها أو لا كتفت بسعادة انها اصبحت اماً لا يطول عليها العهد ان تلد ولدً يشبه اباه فرنان وردي اللون ذهبي الشعر

يبكي لبكاها ويفرح لفرحها وكانت كل هنيهة تضع يديها على صدرها لتتأكد انهُ حيٌّ وكلما خفق قلبها احست انها تسمع خفقان قلب في داخلها وتردد في قلبها اسم ولدها دون ان تفوه بهِ شفاهها حتى صارت كالمجنونة تارة تضحك فرحةً واخرى تبكي وما احسن ذلك البكآء لاطفاء لوعتها وحسبت مريتا ان سيدتها مصابةٌ بداء عصبي لما رأت من تغيير هيئتها من زهو الفرح الى اصفرار الحزن دون ان تنطق بكلمة اذ نهضت بخفة من فراشها ودمدمت شيئًا فرجعت الخادمة الى الوراء لخوفها من جنون اصاب سيدتها ولكنها رأت سرورها فقالت

— ارى ان سيدتي فرحة

— فرحة جدًّا . وتقدمت من مريتا فاخذت تلبسها ثيابها وهي تفتكر انَّ ما حدث في البيت شيءٌ لا يفهم من حيث سفر جوليا بلا وداع وهرب فرنان مبقيًا رسالةً لا غير وتاثير جوليا بين الفرح والكدر

فقالت في نفسها انا او سيدتي مجنونة ولما فرغت كرمانه من الزينة خرجت الى الحديقة لاحتياجها الى مواجهة السمآء وحدها فرات الشمس احر والازهار اينع واطيب عبقًا من قبل ثم رجعت الى الدار ومرت مسرعة امام غرفة جوليا لخجلة للذنب الذي اقترفهُ فرنان محتقرةً جوليا لعملها السيءِ ومشفقة على ضعفها غير حاسدة لها كما قبل لانها بعد زلة عدوتها ترفعت عن ان تتنازل لمشاحنتها بل رحمتها نوعًا لان ميلها الى فرنان الجميل البهج جرَّها الى ارتكاب الاثم حتى بلغت الى غرفة فرنان حيث ابصرت بتلهف كل ما كان يمسهُ وتطاول بها الشوق الى فتح ادراجه فوقع بصرها على ورقة مطوية على رسالة جوليا لهُ فقرأتها وساءها جدًّا ما رأت فيه من الكلام الذي لا بدَّ من تأْثيره في قلب فرنان وحسبت انهُ تلاها وكان السبب الذي اوقد في قلبهِ شعلة الاثم ولزمت كرسيا دقيقة من الوقت مستغرقة بالافكار عازمة ان تخبره انها فهمت امره وانها قد حبلت واصبحت

لهُ وهولها غير انها خشيت ان يوقع هذا الكلام اليأ س في قلبهِ فيقتل نفسهُ كما رات في الحلم وعزمت ان تكتب لهُ هذه الكلمات ·

عزيزي فرنان

« قد كنت عزمت ان لا اتعبك بتذكاري ولكنني عند قراءة »
« رسالتك التي ابقيتها لي قبل سفرك وعند تلاوة كتاب جوليا اليك »
« وقفت على الفخ الذي نصب لك فاملت بهِ وحذرت اشياءَ لم اكن »
« دارية بها وهانذا مجيبة على رسالتك لتعلم اني ما حنقت عليك في شدة »
« الي لجهلي كيفية ما حدث فاستغفر اليك لا كعاشقٍ بل كرجل فسامحني »
« كما اسامحك وإن تكن زلتك قد نفت كل سعادة من قلبي لسابق معرفتي »
« انك ستذكرني يومًا »

« وكان اخر ضربة وقعت عليَّ ان اضطرَّ لاحتقارك ولا انكر »
« ان حنقي الشديد عليك هو الذي منعني عن سماع عذرك لانك نسيتني »
« ونسيت نفسك حتى دنست ذكر حبنا الماضي »

« على انني فاقدة الحس وهل الانسان مسئول بحركات قلبهِ »
« فلمَ اوبخك اكان بيدك ان تحبني دائمًا لا بل الذنب عليَّ انا التي ما »
« بذلت المجهود في ارضائك ولعل صبوتي اليك ثقلت عليك والرجل »
« يحب السرور والحرية فصرت لكَ كالحمل الثقيل فتمتع بالحرّية ولكن »
« الست غاديا على طردها عن قريب غيران القيد الجديد الذي توثق »
« بهِ يكون اخف لكَ لانهُ برضى الله والناس فكن سعيدًا ولو سمَّ »
« ذلك حياتي »

« اواه ياعزيزي قد كان من الواجب ان تفارقني قبل ان يشتد »
« الداء ولا نعلم الى اي حد الان لي عليك حق التوبيخ والتأنيب »
« لماذا استخرجتني من وحدتي وخدعتني بالوعود المرائية وجررتني »
« الى تتميم ما كان المستحيل لتطرحني بغتةً في العدم وقد كنت اذ »

« ذاك قليل الادراك ضعيف البصر نفاجًا عظيمًا فكيف عاد الكَ »
« العقل اذ فقدتهُ »
« على انني ساعوّد نفسي ان اعيش بلاك وان انساك لانك تريد »
« ذلك ولكن اقدر على ذلك فاسعد ولا تهتم لي وهذا اخر دعآء لقلبي »
« المحطم استودعك الله يافرنان واصفح عن اساءتك اليّ وما في قلبي حقد »
« ولا انتقام وانَّ حزني على قدر حبي لكَ والسلام »
كرمانه

الفصل السابع
هبة من المركيز فرنان

وكانت كرمانه كل يوم تستنظر جوابًا من فرنان فلا تظفر بهِ حتى مضى عليها عشرة ايام كبانية الرجآء على صفحة المآء آسفة حزينة هائمة في عالم اسود من التصورات وتاكدت ان فرنان قد سلاها فجعلت تحتمل صابرة حائرة ماذا تعمل بولدها اتطلب لهُ اشفاق قلب اقفل عليها ام تموت واياه بالعذاب

وما زالت في تلك الحيرة فاقدة القوى واهية العزم منتظرة امرَّ الانتظار لا يرضيها منظر الطبيعة لتجديده احزانها والتذكار في نفسها ولا الليالي اللامعة بالكواكب لغياب كوكب سعدها ولا نسيم رطب لانهُ لم يحمل لها سلام الحبيب حتى اقبلت مريتا ذات صباح تنبئها بزيارة لوسيان درتوا واذا بهِ دخل خلف الخادمة بلا تكلف كما قبل فعاد الدم الى قلب كرمانه وهامت بين سرور وكدر سريين فجلس قبالتها وهو صامت منتظر غياب الخادمة التي تلاهت بشي في الغرفة لتقف على خبر ما حدث تمامًا

فطردتها كرمانه بلمحة طرف فخرجت وهي تقول لابدَّ لي ان اعلم ولى واسطة جيدة لاسمعهم

— الا تسوُّكِ زيارتي ياعزيزتي

— بل هي سارة جدًّا

فاخرج لوسيان من جيبه صندوقة صغيرة ووضعها على كرسي قريبًا منهُ ثمَّ قال

— او تعلمين ياعزيزتي كم حادثة في خمسة عشر يومًا وكل الوقت قد تغير وانا اليوم وحدي وقد تركت جوليا الا تعجبين

— لا اعجب لان الرجال يفعلون كما يشآؤون بجنسنا الضعيف

— اني حزين جدًّا انفر من الحياه ولا جلد لي ان افارقها كانت جوليا منذ مدة تهزا مني فقد قضت هنا اياماً ولم تكتب لي ثم ذهبت الى بيتها فوجدت هناك اميرًا روسيًا لم تمكنهم الفرصة او الخجل من اخفائه عني فشرحت لها صدري وحاولت ان تستر فاستفسرت الحادثة كما وقعت لان عقلين كاللذين لي ولها لا يغلطان ظنًا وان البراز بين فارسين شديدين لا يطول انتهاؤُه ثم تودعنا وهانذا حر مطلق وما اكثر معنى (مطلق)

فاثرت هذه الكلمة في كرمانه لانها خشيت ان يكون فكر فرنان فكر لوسيان لائتلافهما فكانها لطمة اصابت جرحًا لم يختم بعد وتغيرت هيئتها اما لوسيان ففطن بغلطته وحاول ان يصلحها

— ما معنى كلمة الحرية في الحب ليست ذات معنى هي باب ترك مفتوحًا للاهمال وقلة الامانة ولو كانت لي امرأة سليمة لما طلبت التحرر منها قط

— ان المرأة الحقيقية هي التي يشعر قلبها وليس كل الرجال يفهمون هذه اللغز انما رغبتم في الحب لارضآء هوى ساعة او لاسباب لا تدرك اليس كذلك

—صدقت ولكن النسآء يغلطن بالحب فانهن يعشقنَ مرارًا رجالاً لا نفع لهم ويحتقرن قلوبًا كلها كنوز ثمينة اذ لا يبحثنَ عن القلوب بل عن الوجوه وعليهِ لو تقدم رجل قبيح المنظر الى امرأة جميلة وادعى انهُ عابد لها فهي ترفضهُ ولو حوى عقلاً عظيماً وقلبًا طيبًا سليماً وقد تضحك من جرأتهِ وعليهِ لو جئت انا القبيح المنظر اتطلب الاقتران بك وكنت حاويًا ما ذكرت من المناقب والصفات الحميدة ماذا تجيبينني

—اجيبك ان النسآء تكون بلا شرف ولا حظ اذا غيرت الاهوآء على اختلاف الاهوية

— ذلك ليس جوابًا كافيًا . ولو حسبت واننا تواددنا لما افتخرت بحبي كما لو خلقتُ جميلاً فابن الجودة

— نحن سيئات اذا سؤتم وجيدات اذا جدتم ولا تمزج كل النسآء في كلامك ذاهبًا بكمال الواحدة تحت ستر نقص الاخرى

— انك لمن اشرف النسآء نفسًا وقلبك اطيب قلب واني لاسف لاسفك ثم ان الصداقة لها واجبات يقتضي القيام بها وقد اوصاني فرنان ان آتيك بهذه الهدية اذ انهُ لن يراكِ فالتبس علي كيف اذكر لك ما قال لي وكنت اود لو آتيك بانبآء السعد ولكن لحى الله الايام . ووقف مودعًا لها فقبل يدها وسألها ان احتاجت الى شي ان تذكره ثم سار وهو يقول مسكينة هي وسمعتهُ فاجابت

— مسكينة للغاية وبدأت تبكي اشد البكآء ووقفت وهي تقول

— للهما امر العذاب لو انني آلم لشي مهم ولكن لرجل لا يدرك حالتي غير اني احبهُ رغماً عليّ وعليهِ وعلى الدنيا . وفتحت الصندوقة فوجدت ورقة حاوية قطعة الماس كنقط معلق بعضها بالبعض —مسكينة النسآء يرضونها بالعوبة عوضًا عن المحبة ورأت ورقة صغيرة مطوية ففتحتها واذا بها «لست مستحقًا لدموعك باكرمانه فاردها لك وآخر قبلة اودعتها ايبستها حرانفاسي

« فاحتفظي بدرر الندى هذه التي سقطت من قلبك تذكارًا محزنًا لحبنا»
«السالف » «فرنان»

فتأثرت كرمانه لهذه الكلمات الشعرية اللطيفة فقبلت الرسالة
— لا اقبل هذه الهدية لي ولكن للولد الجديد.

الفصل الثامن

ضعف القلب

في اوائل تشرين الاول نحوًا من الساعة السابعة مسآ كانت عجلة واقفة امام عدد ١٦ من شارع مدينة الاسقف تحت مطر يهطل سيولاً من سمآء سودآء الوجه بالغيم حتى طفحت الشوارع بالمياه التي كانت تركض بضجة على البلاط وتنصب في الآبار وبباب تلك العجلة فتاة متكئة عليه مادة راسها الى الخارج كانها لا يؤثر فيها لطم الشتآ مقلبة طرفها بين الاف العجلات المارة والآتية تصعد الوحل اليها وهي لازمة مكانها لا تحول بصرها

اذ صاحت— الحمد لله — واذا بعجلة وقفت بعيدًا بقليل فنزل منها شاب بدثار لا يرى شيء من ملامحهِ· واقبل على الفتاة فلما عرفها جمد الدم في عروقه وقال — أكرمانه

فاجابت بصوت منقطع مصفرة الوجه — اردت ان اراك آخر مرة وفتحت الباب متنحية ليجلس فقال

— لا اقدر اني وعدت والدتي ان انعشى معها وانا اردت الذهاب الى شارع بروفنسا آتي للقائك بهِ بعد ساعة او اثنتين على الاكثر

— أصحيح ما تقول لا تخدعني يافرنان اتاتي

— اعدك بذلك

— اصدقك فعليك السلام

وقفل فرنان راجعاً بسرعه ودخل في عجلتهِ فقرع الخادم الجرس واذا بالرتاج قد فتح للعجلة اما كرمانه فما عتمت ان وصلت الى الشارع . الى البيت الذي طالما قضت بهِ مع فرنان اياماً شهية لذيذة وهو بيت مفترش بما يسر الناظر ويدعو الى الراحة والدعة من الانسجة الحريرية والاواني ذات المناظر البهية وما زالت كرمانه جالسة قريباً من النار تصطلي وكلما سمعت صوتاً يخفق قلبها حتى وقفت عجلة صعد منها رجل على السلم واذا بفرنان قد اقبل فحياها وحيتهُ بالسلام ثم بدا بالكلام

— قد عجبت جدًّا من مجيئك فما سببه

— سببهُ اني قطعت الامل منك فضاقت علي الحياة واتيت لاسرّي همومي قليلاً ثم ندمت ولم ارد ان اعود على عقبي

ونطلعت في عينيهِ ثم قالت

— لا تتكدر لاني عشت حزينة في نزاع دائم فغررت و بالله المستعان ثم يجب ان تعلم

وتوقفت عن الكلام

— ماذا اعلم

اصغِ اني للآن قد احتملت بصبر طويل زيا راتك وحاولت ان ارضى بوداعك وان انساك واغلب هواي ولكن كل شي الان قد تغير وقد اتيت لاقول لك — يافرنان لا يجب ان تفتكر بعد بالرفاق على غيري

— ولماذا لا اتزوج

— لاني اصبحت امًّا

فضحك فرنان لانهُ لم يكن اول مرة سمع ذلك منها بسبب دلائل كانت تعرض بها فتظنها دلائل حقيقية وكان قد خشي ان تلحق بهِ نقمة امرأة متروكة فلما سمع هذا الخبر لم يكد ان يصدقهُ او يهتم لهُ

— قد قلت لي يافرنان انت ان الحب بلا الامانة ميت كما اصبحت

بعدك كرمانه وانك لطالما كررت على اذني انك لا نشك في صدقي ولم تخطئ لان قلبي بقي مكرساً لقلبك . انسى الالم الذي سببت لي بلا ارادة منك واطرح بعيداً عني كل مطمع لشفاء الحب لكنني لا اتمالك اليوم ان اقول لك يا فرنان لا تهملني بل لا تهملنا . فصاح بلا ادب ولا لياقة

— هذا لا يمكن أ أنتِ مجنونة ابن حلمت بالحب وان كلمتي وكلمة امي قد اعطيتا فلا نقدر على الخلاف وانت تقولين بكل مهل — عد اليَّ اغفر لك اثمك ـ لوهم مر براسك ثم وقف واذ فهم فظاظة كلامه اراد ان يلطفهُ فقال بصوت رقيق

— ما لك وهذا المزح يا عزيزتي ان ما قلته تجربة لي اردت ان تعرفي بها سلطانك على قلبي واذا كان حبي لك قد اطفئ فاعلمي انهُ احر من النار ذات الوقود واهواك وانعذب اكثر منك للفراق ولولا الذنب الذي ارتكبتهُ آخر مرة وجدت عندك لما استطعت ان اودعك قبل وداع روحي ولكن طردتني وكنت اهلاً للطرد وكأنك فتحت لي باباً لاتمام اوامر امي فلا تقطعي عني ما بقي لي من الشجاعة لاقوم بما نستوجب والدتي لاني مكره على الزيجة ولكنها لا تمنعني ان اراك واكون لك فان المرأة المعدة لي لست احبها ولا تعجبني وكما ابتدأ حبنا بالخفية عن العيون فليبتو بالخفية ودعي الناس في خوضهم يلعبون — فنظرت اليهِ نظرة باردة وقالت

— ما احقرني في عينك انا التي امنت باخلاص قلبك وجعلت حياتي في هواك اهكذا الرجال رأيتني جميلة ولم تنظر الى ابعد . انني لحمقاء بان افهم الحب كامرأة لاني اصبحت لك كالبغي التي تلتقط عن الطرق ويهملها صاحبها عند ما تأنفها نفسه

— انني عكس ما تذكرين اجلك واكرمك كل حياتي كاقرب النساء الى القلوب واحقهن بالحب

— اذن كيف تجرأ ان تعرض عليَّ هذه القباحة

— صدقت ولكنني كلما اراك تودعني شجاعتي ولا اعلم كيف افارقك فسامحيني سامحك الله وافهمي حق معنى الكلمات التي جرحتك بما فيها من الحنو والمحبة لانني لا اقدر ان اتصور ان هذا الصوت الذي يلهب دمي والوجه الملكي ليس لي ثم جثا على ركبتيها — سامحيني ودعيني ان انسى كل ما اسأت بهِ اليك وان احيي في هذه الساعة اللذيذة التي اقضيها على قدميك وانك لا تزالين محبة لي نعم انت لي ياحبيبتي وسيدتي واليفة عمري.

ولما فرغ من كلامه احس ان صناعته في التحبب قد تحولت الى هوى عاصف قوي لما اثر في قلبهِ ان يسترضي تلك المحبوبة التي قابلته بعين انفة باردة وود لو يؤثرها بفصاحة لسانه ودعوى عشقه اذ ان حركاتها كانت تصيب وقعًا عظيماً في قلبهِ وما زال يداعبها بالكلام وهواه يتجدد حتى كاد يطير عقله هيامًا بتلك التي لم يذكرها امس الا ناشفًا جامدًا فسامحته كرمانه وفتحت قلبها لدعاويه الغرارة ووثقت بتجديد الوداد ومنحتهُ قلبها

وفي الغد صباحًا نظر فرنان الى الساعة فكانت السابعة فاقبل يودعها وقد ذهب حبه مع الليل وقبلها مستعجلاً فقالت له كرمانه

— احان لك ان تذهب

وامده عقله كذبة

— عليَّ ان اركب والدتي السكة الحديدية لتروض نفسها في الخارج وتعلمين ان السفر يبدأ الساعة الثامنة وقد فاتني الوقت

— لعلك تسافر معها

ففكر فرنان ان هذا باب جديد للخلاص فتحتهُ وهي لا تدري

— لم تخبرني للآن ولكن ما عليَّ الا الطاعة

فعاد اختباط كرمانه وانفعالها ولا سيما لما رأت من نزقهِ في الكلام وقلة اهتمامه لها وتاكدت انهُ خدعها مرة اخرى فاظلمت الدنيا في عينيها ووقفت

موجعة حزينة مستكينة بمنظر افزع فرنان فحار في امره حيرة شديدة ثم قبلها وادبر ثوًّا الى داره خائفًا من سكونها وجمدتها المرهبة ان تكون مستعدة لقتل نفسها اذا لم يكن ذلك كبرياءً منها وعمد لمكالمة اموفي هذا الشان وان برسل صاحبه لوسيان فيتداركها بعنايتهِ لئلا تلحق بنفسها ضررًا وعند هذا الفكر اطمأن بالهُ وزال بلباله ونشفت دموعه التي وصلت الي اجفانه ولم تتعداها

وعند دخول فرنان الى منزله طلب مواجهة امه ثم اقبل عليها وهي في فراشها فلما ابصرته مصفر اللون لم يخفَ عليها انهُ يحاول التملص من اختباط جديد في حياته القلقة فعزمت ان تعينه باحكم مشورة على انها قضت حياتها تدرح وتدربهُ لا يقع الا ثقيلهُ ولا يضيق عليهِ الا تفرجه وقد علمتهُ على الرضى في كل شيء ولو كلفها عناءً جمًّا فعاش لا يحب الا راحته وانبساطه وان يحتفظ من كل غم وان يظن العالم كله لهُ ومن فرط كرمها عليهِ نشأ شابًا محبًا نحيفًا شديد التاثر فاصفرت والدته وجلست على فراشها وكأن لحظها المحدق بهِ كان يعني اي ضحية تريد فاقدمها لك فقال لها فرنان

— اني شقي للغاية فخلصيني وعزيني وساعديني ان لي معشوقة منذ سنتين كما تعلمين

— متى علمت ذلك

— كنت عالمة ولكن حنوك العجيب صدك عن مفاتحتي بهذا الشان وان هذه المرأة العجيبة قد اوبقتني ولا اكتمكِ شيئًا من قصتي ولا سيما لاني لست بمذنب وقد تعقلت من يوم قلت لي يافرنان احس بضعف ولست اعيش مديدًا فاذا كنت نشاء ان اموت سعيدةً فتزوج ووعدتك بذلك ومنذ شهرين جاهدت في قطع هذا الوثاق وان اخمد نيران تلك المرأة ولكن عبثًا والان اخشى عليها ان تقتل نفسها ولوكانت كسائر النساء

لما تجاسرت ان اكلمك عنها ولكنّ لها قلباً مخلصاً وتحبني بكل صدقٍ ولا اريد ان اكون سبب موتها ودامت امهٔ تسمع ولا تفهم ما يقول تمام الفهم لانها احبت في حياتها الهها وزوجها وابنها وما عرفت عواصف الاهواء وكيف انّ النساء تحوي اشراكاً للرجال تقفهم بها عن مستقبلهم وتنسيهم امهاتهم الحنونات على انها لما بلغ ابنها سن الثماني عشرة ادركت مفاعيل نشأة الحب فيهِ بحيث كانت تخاف اذا اطال السهر خارج البيت خوفاً عليهِ شديداً وغالباً عند رجوعه كان يراها قلقة كئيبة فتسأَلهُ عن سبب تأخره ويسأَلها لماذا تنتظره. الجواب الذي لا يشفي غليلاً

وما احزن الام اذا وجدت نفسها في غير المحل الاول من قلب ابنها وهذا الانتقال مما يؤثر جداً في قلب النساء ولكنهنّ مع التمادي يعتدنَ على المقاسمة ولكن يردنَ ان تكون شريكتهنّ في قلب الاولاد شريفةً طاهرةً ولذلك فاتحت فرنان امهٔ بمسئلة الزواج وسرَّت بقبوله دون تمنع غير انها في تلك الساعة ارتبكت في امره خوفاً من ان تمنعهُ حبيبتهُ عن تلك المرأة التي تعرّسها ولا سيما وخطيبتهُ كانت ذات مهرٍ يبلغ مليوناً من الفرنكات وخلقة جميلة وعقل واسع واصل شريف مما يأكد سعادة فرنان اذ مرَّ برأْسها فكرٌ فقالت لهُ

يا ولدي الحبيب الشقي في اي العري اوثقت نفسك • وسقطت من عينها دموع حرّات كالجمرات

— نعم اني شقيٌّ جداً . واخذ يبكي مما اثّر في اعصابهِ حزن امهِ واسف على كرمانهِ التي يشتهيها الملوك

— قد افتكرت في السفر ولكن يقتضي لي رخصة من الوزارة يا اماه

— ستحصل عليها ومن حيث ان صهر خطيبتك قد دعاك ان تذهب للصيد واياه في القصر الذي لهُ في بيرينانيا فاقبل دعوته و بينما انت هناك اقرب عهد زيجتك

ــما احلاك وما اجودك يا امي اسافر غداً بلا ريب . وقبل امهُ قبل شكر . والان ادعك واذهب الى بيت لوسيان درتول ثمَّ الى بيت خطيبتي واكتب الى صهري واضرب صفحًا عن الماضي وانظر في المستقبل ثم ودعها فرنان بعد اخذ دوآء لتسكين اعصابهِ وركب عجلة قصد بها شارع الهافر ليواجه لوسيان فرآه مستغرقًا في تكاٰة حزين القلب

ــ مالك

ــ اني حزين ومخدر من الحياة

ــ وانا كم معذب يالشقاء الرجل المحبوب . قد انت كرمانه الى باريس ورايتها وقد قابلتها منذ ساعة

ــ كرمانه الى باريس

ــ نعم ياصديقي

واخبره كل ما حدث الامس فسمع لوسيان القصة بالم ظاهر فعلهُ على وجههِ

ــ والان ماذا ازمعت ان تعمل

ــ ان اسافر

ــ واذا قطعت الرجاء وقتلت نفسها

ــ انما انيت لتذهب اليها وتسهر عليها

ــ انها لامراة شريفة انيقة وان كنت انت تركتها فليبقينَّ لها صديق فلم يتمعن فرنان بتلك الكلمات بل اعتبر ظاهرها وسرَّ بانهُ برَّأ ذمتهُ منها وودع صاحبهُ بفرح

ــ اأراك الليلة

ــ ما ادري

ــ اياك ان تخبر كرمانه عن مقابلتنا بل اظهر انك زائر لها اتفاقًا ودبر الامور بالتي هي احسن .

— لا يكن لك بال . فامسك فرنان يده وهزّها بحبٍّ
— اشكرك يالوسيان انك تخلصني وتخلصها وقال لوسيان في نفسهِ وانا أكون الهالك

الفصل التاسع

لوسيان

كان لوسيان من مشاهير منشئي الجرائد وامتازت طبيعتهُ بالتحقيق والتدقيق عن الاشياء دون الاغترار بالظاهر وعليه كانت حياتهُ الفكرية متعبة فاذا اراد ان يتسلى سقط غالبًا في الزيادة والاكثار

وهو منذ عرف كرمانه احبها حب صديق ثم اخذ يتامل عواطفها وواطنها وعقلها وسائر صفاتها فوجدها عجيبة ما لها مثيلة فعلق حبها في قلبهِ وجعل يلعن فرنان معذبها حتى انهُ بعد زيارتها مع فرنان في فونتيلو رجع مختبطًا يفكر ان — انني ما احببت قط اذ لم اجد كما اهوى ولو كان لي الحظ ان املك كرمانه لضحيت لها كل ما تحت يدي

ومن ثمَّ امضى غير ليلة ساهرًا قلقًا يبني مقاصد ويهدمها الى ان سنح لهُ ان من حيث كرمانه صديقتهُ وفرنان صاحبهُ فلا يعارضهُ في امتلاكها واذا اصرت على امل موالاتها لفرنان فلا اقل من ان تكون لهُ سعادة حبها فيعزيها في احزانها ويكثر من الزيارات لها وبذلك خف شقاؤُه ولا سيما لالحاح فرنان عليهِ بان ينتبه لكرمانه وكلما وجد فرنان بحضرة صاحبهِ اجتهد هذا ان يخفي انفعالهُ والامه النفسانية وكلما خلا بنفسهِ اعطى الاحزان مجراها ولا سيما عند ذكر ما اصاب كرمانه من فرنان بمشاهدتها الاخيرة وما زال مستغرقًا في الافكار حتى نهض قاصدًا بيت كرمانه وكانت جالسة امام نافذة ثابتة العين تتامل الباب الذي خرج منهُ فرنان قائلة انهُ عيب على الرجل ان يوقد الحب في قلب امراة ثم يتركها كالصياد

يجرح عصفورًا ولا يقتلهُ وعليه فكرت انها اذا قتلت نفسها ، تنجو من الالام فوقفت كمجنونة ولكنها وقعت من دون قوة ·

ومن اين لها الحق بقتل ولدها · ثم سكنت جاشها وفحصت امرها فوجدت انها مذنبة مالها حق الشكوى واحست ان سعبها في ملاقاة شهية كالتي حظيت بها عبث فصاحت عليك السلام يافرنان اشكرك لهذه المسرة التامة السريعة التي بها وجدتك وفقدتك ولا اقول انك عبثت بي لاني ما احتجبت كما يجب الا وقد سلبت عقلي وخلبت لبي ولا انسى مع ذلك انَّ تلك الساعة ساعة الجنون كانت سعادتي فاصفح عنك يافرنان · وقد تفيض فيها الحزن لما ودعت ايامها الماضيات وانطرحت على الارض مغرورقة بالدموع واسمعت صياحًا منقطعًا

ولو ان كرمانه ارادت ان تفهم الحقيقة لنفت من قلبها حبهُ ولكن المرأة بلهاء من طبيعتها كان الله قد وضع في النساء مقابلةً لادراكها اللطيف عجرفة عمياء وثقةً لاحد لها بالرجال فلا اقل من الكذب والاملاق لامتلاك تلك الذخيرة اللينة حتى من الرجال الذين لافضل لهم يين امثالهم يستلبون الباب النساء ايَّ استلاب وهذا ما جعل فرنان ان يظهر البر ويحسن مداعبتها في الحب حتى امتلك قلبها كالشمع الرطب واعطاه الهيئة التي ارادها

. . . .

. . . .

ولما وصل لوسيان الى بيت كرمانه كفكفت دموعها وسلمت عليهِ بسكون فعجب من صبرها العظيم وارتبك خجلاً من دخولهِ عليها بلا اعلام ولكنهُ فهم بعد فحص ملامحها الحاملة اثار ما اصابها في الليل من التعب في التقاط الحب واضاعته بلا امل وعرف حالة قلبها وقال بصوت رفيق اطلب منك يا كرمانه ودًّا يكون جزاء صداقتي

ـ قل فانّ اعزّ شيءٍ عليّ خدمة اصدقائي

ـ فإذًا اقسمي لي انك لا تقتلينَ نفسك الا بعد ما تعلميني واذا بعد كل الجهد لم تقدري على احتمال العمر فاعدك انني لا امانعك عن قصدك ولكنني اريد ان تخبريني قبل . وقد طالما طرقني هذا الفكر فما قويت على كشفهِ لك

ـ اقسمت لك بما تريد . ولكن ما بالك تكلمني عن الانتحار من قال لك ان هذا فكري وليس لي حق بقتلي نفسي

ـ قد لمحت انك منذ ساعة عانيت اختباطًا شديدًا

ـ نعم ولكنّ فكرًا صدني . وسقطت دمعة من عينيها

واخبرت لوسيان عن السر المكتوم فتاملها باشفاق وتاثر جدًا لفرط تعاستها

ـ ادركت يا كرمانه حزنك واتالم اكثر منك فابتهل اليك ان تنظري اليّ كاخ شفيق ومن حيث لا اقدر ان اسكن احزانك فاذني ان اقاسمك اياها واني عاجز عن تعذيبك ولكن اخبرك مع ذلك ان فرنان قد سافر

ـ لم اشك بذلك

ـ الوقت يجلب النسيان

ـ لعلي اسلوه

ـ انني اشقى منك ولم يبقَ لي مستقبل جميل ولا يعود عليّ الربيع ولا يسم لي الحب بل عليّ ان اعزي نفسي بطلب العلى . واطال لوسيان الكلام ثم وقف لعلمه ان لا فائدة منهُ في جنب الام كرمانه ولما ودعت لوسيان التفتت اليهِ متبسمة وقالت هذه الالفاظ التي سقطت على قلبهِ المحترق كالندى المحيي .

ـ لا تقلل زيارتك لي

ـ اشكرك ياسيدتي . وخرج متاملاً بصبرٍ امتداد الحب فيه اول حب

خفق له قلبه القانط لعدم معرفته كيف ينتهي . وعند المساء ذهب لوسيان الى منزل بالبان فاستقبلته ام فرنان واخبرته ان صاحبة اعيته اتعاب النهار فهو يستريح

وان الانسان الوحيد الذي عرف حقيقة لوسيان انما هو ام فرنان فاكتفيا باشارة لطيفة من الكلام ليفهم احدهما الاخر واخبرته ماتريد من انفصال فرنان عن تلك المرأة فتغيرت ملامح لوسيان لهذا الخبر وقال

—ماذا يكون من امر هذه المسكينة

— ما شاء الله وليس ذلك يهمني اذ ما علينا ان نهتم لكل الخلائق التي تعجب ابناءنا والا ما اطول الامنا

— انها امراة تستحق الاكرام ولا يجوز مزجها مع تلك الخلائق التي تتكلمين عنها واعظم غلطاتها انها تحب الى الجنون رجلاً ليس اهلاً لها

— (نسي انه يكلم ام فرنان) فلما سمعت منه هذا المقال لم تصدق انها تكلم صاحب ابنها وندمت لاستئمانها الى ظاهره وهذه الاقوال اظهرت لها لوسيان غير ماحسبته وبينت لها الارتباك الذي ظهر عليه اول الجلسة فاخذت يده وقالت بلطف

— اظنك حزينًا جدًا لانك اوجعتني بنسيانك انك تتكلم عن ابني وصديقك وان عيوبه تجرح قلبي اكثر من قلبك

— استعذر اليك ياسيدتي قد نسيت الاحترام اللائق لمقامك ولكني اجبرت على ذلك لان فرنان باهماله كرمانه يهمل الزم شيء له ولده

—أ لفرنان ولد .لم يقل لي شيء من ذلك

— يعتذر انه جاهل للامر اذ لا يصير ابًا الا بعد اشهر

— اذًا من قال لك ذلك

— قد لمحته من بعض عبارات تشير اليه في اخر مواجهة لي مع كرمانه

— من يدري اذا كان الولد . . . فقاطعها لوسيان وقال

— قسماً بالشرف انك غير مصيبة

—انك تدفع بحرارة عن هذه المرأة واظن ان ميلاً اعمى يجذبك اليها

— انا بين كرمانه وفرنان منذ ثلاث سنين شهدت اول ملاقاة لهما ولم احسد سعادة فرنان واُقمت مبلغ الرسائل بينهما مراراً وعشت بسكون مازجا حياتي بحياتهما لا يخفق قلبي الا سروراً بسرورهما والآن اود ان الطف الواحد واسلم شرف الثاني وليس الا صداقتي المختصة لهما تحملني على هذه الغيرة . واذ سمعت لوسيان يكلمها عن الشرف بما لا يفهمهُ ظاناً ان الشرف يفقد بسبب حب يخامر الشاب عذرتهُ على قولهِ الصبوي وخافت اذا طال الحديث ان تسمعهُ و يسمعها ما يكرهان من رشقات الكلام فصرفتهُ بنوع لطيف

— تعال بعد قليل يا لوسيان فتتكلم مع فرنان بهذه المسألة

— انني الليلة لا اقدر على المجيء فاهديهِ سلامي

— اشكرك عنهُ . . .

وعاد لوسيان الى بيته اما المركيزة فرأت فرنان قد افاق من نومهِ

— الحمد لله لم يبق عليك ما نخشى قد زارني الان لوسيان ودبرت امرك بكل حكمة

ولم تظهر لهُ ما دار بينهما من الحديث عن شان حبل كرمانه اذ لو كان عالماً بذلك لاخبرها فاجاب فرنان الحمد لله الف مرة فانني اطلقت من قيد مهلك

— ساعد كلما يجب للسفر

— الا تذهبين برفقتي

— ارافقك مدة ثم ارجع لتقريب عهد سعادتك .

— لو لم تكن العاصفة هنا لما احببت الابتعاد عن باريز .

— لولا الطيش لما هبت العاصفة

— نحن مردًا نساق الى الفخاخ على غير ارادة منا ولكن ماذا يفعل العصفور المصطاد

الفصل العاشر

ثم عادت كرمانه الى فونتنبلو لتسترجع كل مالها هناك الى ذلك البيت الذي اصبح عندها جامدًا كالقبر بعد ما قضت فيهِ اشهى ايام حياتها فحيت هناك حبها الميت وباعت كل ما ملكت من الصيغة الكريمة الا قطعة الالماس التي وعدتها مهرًا لولدها وقفلت من ثم الى دارها في باريس حيث عاشت منفردة لا يزورها احد من اصحابها القدماء الا لوسيان الذي بعد ما اذنت لهُ لم تمضِ ليلة الا سهر وإياها مهملاً سابق مسراتهِ متخليًا عن النساء لا يهتم الا لكرمانه كان لسان حالهِ ينشد

بهواكِ عشت وفي هواكِ بقائي　　　وعلى هواكِ تنعمي وشقائي

فكانهُ كلما قرعت الساعة المعينة دفعتهُ قوة سرية الى دار كرمانة وكلما رآها فرح بعد كربهِ وهو مع ذلك لا امل لهُ بالتوصل اليها

وما صبابة مشتاق على امل　　　كما صبابة مشتاق بلا امل

اذ لم يكن لهُ الغنى والحسن ولم يشاهد انعطافها اليهِ ما وراءه سبيل للرجا ولا سيما لان الجرح لم يزل جديدًا في قلبها بعد فرنان فكان يخشى ان تنكاه كلمة منهُ بشان التزوج بها او سلو فرنان او ان يذكر لها حبهُ الذي شغلهُ عن مهامهُ واحرق قلبهُ كالنار او الدع

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل　　　فما اختاره مضنى بهِ ولهُ عقل

وحدث بعض مرار ان لم تستقبل كرمانة لوسيان من اجل ضعف اصابها فكان الشاب المتيم يقف قبالة البيت لا يعبا بالمطر الهاطل ولا

البرد القارس حائرًا طائر الفكر خوف ان يزورها غيره الى ان يرى النور قد اطفئ فيطمئن باله ويعود شاكيًا من تعدد زياراته واعدًا نفسهُ ان لا يعود الغد ولكنهُ في الغد نفسهِ كان اسبق من المعتاد الى بيت كرمانه فيدخل عليها باسماً جذلان ويقضي واياها ساعات اسرع من البريقات تارة ترتل لهُ بما يهيج الخواطر وتارة يقرا لها قصصًا ونوادر

ولا يعجب القاري من الغرام الجموح الذي استولى على لوسيان بامرأة عرفها قبل بثلاث سنين ولم يشعر الا بالتعجب من جمالها ورقة حديثها فان من الهوى ما يهبط كالصاعقة من حيث لا يدرى واذ ذاك لا تسل عن الآلام فهي عديدة وعن المصاعب والاهوال فهي كل يوم جديدة فكم من الرجال الذين عرفوا نساء فودوها مودة خالصة ثم افاقوا ذات صباح واذا بهم مشغوفون بهن لا يذكرون الا هن ولا يطيب لهم عيش الا معهن فما أكثر اوجه الغرام واتعب الساعي فيهِ وراء مرام فهو يجد ولا يصل الى الامام كانهُ تحت وقر منام وقد اراد لوسيان مرارًا ان يفهم اسرارها فسالها عما يوجب ضعفها واصفرارها

فاجابتهُ بشكوى مبهمة لم تشرح لهُ صدرًا ولم تفهمهُ مما يريد امرًا

— لمَ لا ترين نفسك الى الطبيب

— دع الايام تفعل ما تشآء وهل يرتد ما فعل القضآء

— ليس ذلك برهانًا كافيًا انك بهِ تسوءين صحبك واصدقاءك

— ليس لي من الصحب الا القليل

— اتعدين منهم بعضًا

— انت وحدك الصديق الذي ثبت لي بعد الضيق

فود لوسيان لو دخلت قلبه وعرفت مقامها فيهِ وجنونه بها ولولا حرمتها والوقار المجلل هيئتها لقال لها

أانظرك بعين احر من النار وتنظريني بابرد من الجليد ياقاسية ترى

عينها زهرة الصداقة الباسمة تنمو لا ذلك النبت السام الحار الوحشي المتعرق في قلبي . الغرام

وعلى ذلك قضى لوسيان اشهرًا معذبًا عابدًا كثيرا لضراعه ولكن لا امل لهُ بالشفاعة

الفصل الحادي عشر

الندم

خرج لوسيان ذات صباح من مكتبهِ لغرض ما فاوقفتهُ امرأة

— مالك لا تذكر صديقاتك السابقات حتى تمر قريبًا منهن عابسًا لا تسلم وتمشي محني الراس كانك ظالم يتأمل في ارتكاب ذنب ام تلميذ يردد محفوظاتهِ

— اسعد الله نهارك ياجوليا كيف اصبحت

—قد اصبحت اميرة او بروف

فضحك لوسيان سخرية

— قد اصبحت اميرة غاية في الغنى الا تذكر الرجل الروسي الذي فتنتهُ اي فتنة اني قد القيت عليهِ ذبول ظواهري ولففتهُ بها فتبعني وآنستهُ ولاطفتهُ وقلبتهُ على كل الاوجه حتى تزوج بي فكان عند مطامعي من الغنى والجاه والجمال وانهُ عابد لي وعما قليل نتوجه الى بطرسبرج فارجو ياعزيزي ان لا تكون حاقدًا على تفضيلهِ عليك اذ لم يكن فكرك ان تتزوج بي فلا تحقد

ومدت لهُ يدها فهزها بلا اهتمام

— لا احقد عليك ابدًا ياعزيزتي جوليا

— كيف كرمانه

— اراها غالبًا

— الا يزال فرنان وإياها

— قد تركها نهائيًا وهو عما قريبًا يزف على غيرها

ففهمت من جوابهِ ان كرمانه لم تذكر ذنب جوليا لاحد فتاثرت من صبرها وصيانتها لشرف سواها

— وهل هي في فنتنبلو

— لا قد رجعت الى باريس في شارع بروفنسا العدد التاسع

— ايجد فرنان امرأة اشرف وامثل وقلبًا اشد تعلقًا بهِ وصبوة اليهِ انهُ لا يستحق المحبة

— نعم لا يستحقها ولا يجب على الرجل الشريف ان يهمل وادهُ ولكن اما كنت عالمة بجبلها فاسأ لك ان تكتمي هذا السر الذي افشيتهُ عن طيش

— مسكينة كرمانه

والقت بصرها بالارض فاكرة حائرة وتمنت ان تكون هناك كرمانه لتجثو على قدميها وتستغفرها عن ذنبها لانها ما فكرت قط بالانتقام من جوليا تلك التي سلبتها حبيبها واوقعتها في ذلك الشر الموبق

— لولاخوفي ان تثقل زيارتي عليها لذهبت الآن اليها

— انها لا تقبل زيارةً ولكن الافضل ان تذهبي

— اظنها حانقة علي

— ان الحنق ضعيف الاثر في القلوب الكريمة

— فاستودعك الله يالوسيان ازورها واذا لم تستقبلني فاكون قد سعيت في التكفير عن ذنبي

وعند العصر اقبلت مربتا على سيدتها تعلمها بزيارة امرأة لابسة برقعًا كثيفًا بحيث لم تعرفها

— اخبريها اني مريضة لا اقبل زيارة

— وبعد دقيقة عادت الخادمة

— سيدتي ان لهذه المرأة امرًا مهما تحتاج الى مواجهتك من اجله «ولم تذكر الدنانير التى سقطت في يدها» وهم كرمانه ان تعرف ما ورآ هذا السر فدخلت الى ردهة الدار ثم اقبلت عليها تلك المراة

فلما دخلت الردهة كشفت برقعها فصاحت كرمانه

— جوليا انت الى بيتي

— ياكرمانه اتريدين ان تنسي الذي مضى وتردي عليَّ صداقتك

— قد انقطع حبل الوداد فلا يوصل لعلي انسى البلآ الذي اوقعتني به لكنني لا اصاحبك

— اصغي الي ياكرمانه انني نادمة كل الندم وانك لا تصدقيني لكثرة الاوجه التي نقلبت عليها في عينيك فرأيتني تاره صديقة مخلصة وتارة عدوة لدَّى ونارة متكبره رديئة والآن متضعه خاشعه ولكنني تغيرت كل التغيير وقد تزوجت باميرروسي عرفت ان ارضيه وانا الآن سعيدة ناعمة وإياه فاسمعي شرح حالى بكل صراحة ولعلك تصفحين عني

ان المظاهر المختلفة التي رأيتني بها نتيجة ما في نفسي من الاسرار المتضادة فان عندي شهوة قوية للمباهاة والزينة والزخرف قد صلبت قلبي حتى كنت تزوجت بشيخ هرم لاكون السائدة عنده انا التي طالما حست رقبتها امام اصغر النفوس ولي الوان عديدة اقدر بها على كثير من الشر وكثير من الخير حين اشاء . وانني منذ شهرين عندما وقع ذلك الحادث المشؤوم كنت حاسدة لجمالك السامي وصفاتك البديعة فان عندك من كرم النفس ما يرفعك فوق كل مديح وقد ابغضتك سابقًا ولكني اليوم احبك اكثر مما ابغضتك وان تعاستك زادت تعلقي بك حتى اود ان اجثو على قدميك واطلب الصفح منك وان ابكي لبكاك واشقى لشقاك

وهنا سقطت الدموع على خدود جوليا من الحزن فتأثرت كرمانه

ولكنها تجلدت لتعرف حقيقة الامر

— ماذا ينفعني بكاك بعد ما اذيتني ومضى بي الشر

— نعم قد اضررت بك انا الرديئة اللعينة ولكنني الان اسالك الصفح بحياة ولدك

— اتعلمين انني والده

هذا الذي جرني الى هنا حتى اشفي ضرام ضميري المتقد بالتسامح منك فلا ترديني باليأس واني احس بالحبل ايضًا واخشى على ولدي ان يحل به سوء معاملتي لك ياعزيزتي ولو انني اقدر على اصلاح ما عكست لبذلت نفسي ولكنني اكتفي بمصادقتك وخدمتك المخلصة ومساعدتك في كل ما استطيع الوصول اليه

— سامحنا الله ياجوليا ارد لك مكانك في قلبي لان الامهات لا تقوى على الرداءة والخيانة

— فجثت جوليا على ركبتيها وقبلت يد كرمانه

— اقسم لك اني لا انسى ولاءك بل ابقى صديقة لاصدقائك عدوة لاعدائك وابذل جهدي في راحتك ورضاك واسأل الله ان يمحو اساءتي اليك ويعفو عن ولدي ويقبل اتعابي التي اقدمها لك في سبيل التطهير

— سامحك الله فهلمي عن الارض وكوني افضل ما كنت في زمان الصداقة ان القلوب اذا طهرها الحبل كما قلت لك لا تقوى على الخيانة والدناءة

الفصل الثاني عشر

حب مكتوم مستتر

ومن ذلك العهد قضت كرمانه ايامها بين معاشرة جوليا ولوسيان

فتسلت نوعاً عن فراق حبيبها وسكنت نفسها . وان جوليا اطالت ذات يوم جلوسها مع كرمانه تتحدثان عن مقاصد مهمة للمستقبل اذ دخل لوسيان فدهشتا لمنظره واراد الرجوع مخافة ان يكون قد ازعجهم فمنعته كرمانه وجلس طويلاً يتامل كرمانه وتتقلب حركات عيونه والوان وجهه وجوليا ترقبهُ ادق المراقبة الى ان قالت جوليا لكرمانه

— اسمعينا ترتيلة شجية

فقال لوسيان والدمعة في عينه

— لمن ترتل

— لنا يا لوسيان

فقامت كرمانه وقد جرحتها عبارة لوسيان وجلست الى البيانو ورتلت ابياتاً لالفريد موساي كانهُ وصف بهن حالتها

تذكر وقد طال البعاد على المضنى   وكادت من الاشواق اعضاؤه تفنى
تذكر زماناً فيهِ كنت منعماً   بقربك لا ادري العذاب ولا الحزنا
اقول اذا الهجران اخفق مهجتي   تذكر وقد اخنى البعاد على المضنى

وهنا وقفت كرمانه مختنقة من الحزن وانفرد لوسيان بناحية من الردهة يبكي اشد البكاء لان فرنان لم يبرح ما لكاً قلب كرمانه وظهر لهُ المستقبل فارغاً كالقبو الرنان ففر الى غرفة اخرى وافرغ فيها كل زفراته ونشف دموعه ثم عاد بينما كرمانه مستغرقة في بحار الاسى لو اصابت البيت هزة لم تفق لها وبعد هنيهة قامت جوليا وقبلت جبهة كرمانه وذهبت مشيعة الى الباب وهناك اوقفتها جوليا وقالت لها

— اعانك الله يا عزيزتي ان لوسيان لمتيم بكِ او مجنون

— لوسيان هو نفسهُ ما اجنهُ

ثم رجعت الى الردهة حائرة ماذا تصنع لتتملص من لحظاتهِ وجلست

على كرسي ثم تناولت ثوبًا واخذت تفوف وترقب حركات لوسيان وسكناته وهو يتاملها ملء التأمل ثم يتمشى في الردهة مستبحرًا في الافكار حتى دنا منها فقال

— يا كرمانه اتريدين ان تكلميني بحرية

— نعم قل ما بدالك

— ألم تثقل عليكِ زياراتي العديدة ولا سيما وقد وجدت صديقة تؤنسك

— من اين عرض لك هذا التصور السيّء

— اخاف ان اكون حملة عليكِ

— اذن تحسبني كافرة بالجميل

— اليس للنساء حق التقلب

— انقلبت عليك الى الان

— سامحيني يا كرمانه اني رأيتك استأت عندما دخلت

— لا بل دهشت لدخولك علينا ولم نشعر بك واننا كنا نتحدث عن المستقبل

— اي مستقبل

— تحدثنا عن السفر الى بطرسبرج لمكسب دراهم ولا يخفى ان ما انتج لي مبيع اواني بيتي لا يكفيني للمعيشة ولان قطعة الالماس وعدتها مهرًا لوالدي فلا حق لي بالتصرف فيها

— ما فكرك ان تصنعي في روسيا

— استخدم صوتي لكسب رزقي

فخشي لوسيان ان تدعه وكاد يجن من الحزن

— هذا لا يكون ابد الآبدين

— لم لا يا لوسيان

— ولمن تتركين ولدك

— اما ان ابقيه في باريس او اخذه معي

— ان أبقيتهِ كيف تحملين فراقهُ والا كيف تسعين بهِ مع ضعفه الى بلاد بعيدة

— هذه مسئلة افتكر فيها والبسها حلتها

— لِمَ لا تبقين في باريس

— لاني لا استليق لنفسي عملا فيها ولا احبها

فصمت لوسيان واضطرب قلبه وحاول عبثا ان يخفي امارات الاسى على وجهه واخذ كتابا من كتبها وفتحهُ فوقع بصره على ابيات لالفريد موساي كان قد اعجب بها ولم يذق طعمها ابياتٍ رأى فيهن وصف حاله تماما فجلس ناحية وقال

— اسمعي يا كرمانه فاني قارئ لك هذه الابيات اللطيفة

واخذ يقرأ مقطعا مقطعا احسن القرآءة واجلاها

اذا قلتَ اني في هواك متيم — بعيشك ياذات العيون السواحر
الا ترفضيني والهوى صار قاتلي — ودمعي يجري كالسحاب المواطر
ولو دفنوني في حديقة داركم — انسقين تربي من دموع المحاجر

ولما فرغ من هذه الابيات التفت الى كرمانه فوجدها محنية الرأس على شغلها

— ان الحب هو اعظم كل المسرات التي في الدنيا

— صحيح ما قلت

واتم لوسيان قرآءة القصيدة

تقول الهوى والقلب عنيَ غائب — لدى صاحب في الحب وبلاهُ فاتر
وتعلم اني قد وقفت مودتي — على ذي عيون فاترات سواحر
فهل تعلق الآمال بي بعد ما جرى — لتذهب في حزن و بلبال خاطر

فرفعت كرمانه عينيها عند هذا السوال وقابلت عيني لوسيان فتكلم

الهوى بافصح من منطوق اللسان فرقت كرمانه على لوسيان الذي كان يتامل بحيرة الهاوية المفتوحة لابتلاع آماله وامياله هاوية الشقاء ولما حان له نهض مستويا وودعها حزينا كاسف البال ومضى متاملا في حب تلك المرأة لفرنان جبا يشبه الصخرة التي لا تتزعزع او قطعة الالماس التي لايكدر صفاوها وعجب من صبرها وثبات قلبها على ميل واحد لا تحول عنه ولا يعزيها شيء لضياعه باطلا

وفي الغد مساء عندما اقبل لوسيان في ساعته المعينة التقته البوابة فسلمته رسالة بخط كرمانه

« لولم يكن حبي لك خالصا ياعزيزي لوسيان لابقيت لي في عزلتي التعزية الوحيدة التي بقيت لي لانك في ايام شقاي وحدك الصديق الذي حفظ ولائي وخفف بلائي ولكنني فهمت امس ان من المتوجب عليّ ابعادك وما ساعدني على هذا المصاب الجديد الاودادي لك وغيرتي عليك

« فعليك السلام يالوسيان ان قلبي يقطر دما لهذا الوداع لكن سامحني ياصديقي اني لست حرة بل يد غير منظورة تعلق قلبي بقيد الماضي فلا يمكنني التملص منه تلك ارادة الله او قوة سحرية ـ

وانك لتفهم مقالي اكثر من كل انسان لانك تحتمل الشقاء نفسه وتشعر بغرام اعمى وفي غير موضعه نظيري

ولست من النساء الخائنات البليدات الكافرات بالجميل ولكني اعرف كل الكنوز الثمينة المنطوي عليها قلبك وقد قدرتها قدرها

وكيف فيما بعد يمكنني ان المس يدك او القى نظرك الاحر دون ان اختبط وانزف الدم من وخز ضميري لاني لا اريد ان احتمل العذابات التي تقاسيها فان صداقتي لك تمنعني وعليه يالوسيان استودعك الله

وهذا الوداع انما هو اخر جهد بقي في نفسي المنسحقة واخر شكوى من قلبي الممزق» « كرمانه »

وإذ تلا اوسيان هذه الرسالة جمد جمدة ميت وتحى يبكي كالطفل الرضيع ولكنهُ تجلد من نفسهِ فحاول ان يتلطف وكتب لكرمانه

"تريدين يا كرمانه ولا اقابل ارادتك الاَّ بالصبر والالم وقد وضعت بين حياتي امس وحياتي غداً سور نار لا استطيع جوازه . امس كنت ارى من بعيد بصيصا ضعيفا للامل وغدا اهيم بليل العزلة حيث لا يزورني الاَّ ذكرك

اودعك بلا حنق وهل اقدر على ذلك ولا اشتهي الا سعادتك اذا اتاحتها لك الاقدار لانك خصصت عبادتك لرجل لا تحولين عنهُ وافقدتني الهمة اللازمة لدفع الحزن الملم بي

واني لاسرى من الحياة في الطريق التي لا يقشع ظلمتها نور حيث لا تتفتح عيني الا لرؤ ياصداقتك البيضاء" (لوسيان)

ولما فرغ من كتابة الجواب عزم ان لا يرسلهُ الاَّ غدا صباحا وفي الغد بينما كرمانه تقص على جوليا دهشتها لما رأت من لوسيان وابعادها لهُ اذ وصل الكتاب ففضتهُ وتلتهُ على مسامع جوليا وحزنت اشد الحزن فقالت جوليا

— ان العشق كما يقول احد الشعراء يعيش الاَّ بالوصال ويموت بهِ وقد انشد آخر

ان الرجا يقوي الحب في الكبدِ حتى يشب فتعيي عنهُ كل يدِ

واستدعت الخادمة فقالت لها ان لا جواب للرسالة

ومن ذلك الحين اختلى لوسيان في بيته ولم يخرج منهُ الا ما ندر منأً ملاًّ فيما يعمل ليكسب قلب كرمانه واذ رأى المال بعيداً عنهُ عمد الى شهر نفسه فألف روايات بديعة شكا فيها على لسان غيره ما في نفسه من اللهيب المحرق ومن الغرام المقلق واهدى تاليفهُ الى كرمانه بالطف عبارة واظرف اشارة فلم تجبه الا بهذا الكلام

ب اعفاك الله   لك الحمد   تشجع

فانقطع رجآء لوسيان وثالث يوم من ذلك الحين ذهب فوقف تحت بيت كرمانه و بكى زمانا ذلك الفردوس المفقود وعاد وشؤونه تسيل على الخدود وفوآده من حر الجوى مفئود وركب السكة الحديدية ليغيب عن تلك الارض التي اصبحت في عينيهِ كالطلول قاصداً تسلية نفسه في مدينة اسلانبول

الفصل الثالث عشر

متيلدة اوسير

بعد ان ترك فرنان كرمانه واصغى الى رأي امه شهد في مرقص فتاة عجيبة تدعى متيلدة اوسيرا بنة برونة رزينة حكيمة لها نفس طباع امّ فرنان وافكارها فاخبر امهُ انهُ يرضى بهذه الفتاة ان اصرّت على تزويجه فسرت بها امهُ لعلمها انها من اسمى طبقة بين نسآء العصر عقلاً وجمالاً وصناعة وحبيبتهُ بها ووصفت لهُ بدائعها

و بدأت ان تتردد الى بيت اوسير حتى تمكن الوداد ومنع التكلف ولم تلبث ان عرضت ابنها على مدام وازيل اوسير و بعد طول اختباره سرت بهِ واجابت بالقبول و بذلك تم سعد ابيها اما مدام وازيل اوسير فكانت طويلة القوام بادية الجبهة ناصعة اللون ذات اعين كبيرة يكاد يستشف منها صدق نظرها واتساع عقلها ولها جاذب قوي في جملة شخصها حتى تخطف القلوب وكانت حادة التصور دقيقة الذوق بارعة في صناعتي اللون والتصوير قد زانت جدران منزلهم بتزاويق من تأملها يعرف حقيقة افكارها وما معنى انفتها الظاهرة وهيئتها التهكمية وعدم اجابتها على سوال الا بعد التمعن الكلي فانها رسمت صورة عصر لويس الخامس عشر

على شكل حيوانات يمثل كلٌّ منها نوعاً من الرجال الذين قام بهم ذلك العصر فمنهم الاشراف على صور اسود اماما الفرائس وهي نائمة لاهية منتظرة ان تسلم الفرائس انفسها مسترخية الاعصاب ممتدة تحت ظل الشمس المحرقة مكتفية من الحركات بالالاعيب الانثة . ومادونها على صور غنم بعضها ناظر الى الاسود يتاملها ليقتدي باعمالها وبعضها قد نظر وبدأ باحناء راسهِ وبعضها قد ابصر وحنى راسهُ واقتدى وكل هذا موضح ظاهر يكاد يحيي او كأن على لسان كل من تلك الوحوش شرح حاله والشمس فوق المربع الذي صورتهم بهِ ناظرة بادلال واسترخاء كانها قرص عسل يسيل للمناسبة الكاملة بين كل احوال ذلك العصر الليّن ثم حُوت من وراء الجميع فاتح فاه ومقبل على مهل ليبتلعهم ويريح الارض منهم ولا شك ان ذلك الحوت هو العدم وان تلك الفتاة لم تكن تنظر الى سعادة الحياة الامن وراء الهموم ومن خلال الغيوم ولكنها قنعت بالزيجة لتمضية الوقت على سبيل لا يغضب الله والناس سبيل احبته لانها بهِ تخرج من كل ذم وتتجرد عن كل ما يورثها شقاء ولا سيما اذ ان الاقدار وفقتها الى شخص كفرنان حبيب انيس لطيف لا تكون لهُ سيادة عليها في امر وان امّ الفتاة لم تكن معجبة بها اكثر من ام فرنان حتى ان السرور طفح في قلبيهما ولو وجدت لغة لشعائر القلوب افصح واوضح وافيد من التي يتكلمها الناس لنطقا بها وقصرا بوصف سرورهما وفي كل احاديث تلك الفتاة لم تتكلم قط عن شيء مفرح لظنها ان كل الظواهر الحسنة للانسان سراب فما وراء الري الا الظمأ ولا وراء العمار الا الخراب وان الذين عرفوها وفهموا قوة فكرتها وحدة نيرتها لم يصعب عليهم ان يفتتنوا بها و يعدوها من اكمل واجمل واعقل نساء تلك الايام

الفصل الرابع عشر

اياب

بعد وصول لوسيان الى اسلامبول اخذ يتجول في شوارعها ومستنزهاتها و يفتش عن سبيل لسلوّ كرمانه فما ازداد الا غراماً وما ازداد حبها الاّ تمكنا من قلبهِ و بينما هو على شاطىء البوسفور يتأمل الجمال الذي افرغتهُ الطبيعة فيهِ لم ترَعهُ الاّ ذلك البيت الصغير الذي طالما سر نفسهُ وابهجهُ وقد رأى في اسلامبول من اصحابه عدداً وافراً وكلهم تلقوه بالترحاب ووعدوه اذا اراد ان ينشيء جريدة بالغنى والسعادة في تلك الارض التي خلعت عليها السماء حلة من كسائها العجيب ولكن الشغل ضاقت عليه سبله فلم يرد بل تاقت نفسهُ الى باريز التي مر منها وحن الى الرجوع اليها وهاله بعده عن كرمانه فرفض كل ما عرض عليهِ وصمم النية على الاقلاع اذ وصلتهُ رسالة بلاغ بزفاف فرنان على السيدة متيلدة اوسير فظن انه بارسال الكتاب عن يد غيره الى كرمانه يقطع حبال رجائها فترضى بهِ حليلاً و يعيش سعيداً وتحقق آمالهُ وهكذا فعل ثم لم يلبث ان ركب الباخرة وحلّ في ١٦ اذار بمرسيليا وفي ١٨ انتقل الى باريس وعلى اثر وصولهِ ادعى ان عليه زيارات عديدة لاصحابهِ فبدل لباسهُ وخرج قاصداً دار كرمانه وقرع الباب ففتحت لهُ الخادمة ولما ابصرتهُ لهفت ودعتهُ للدخول فاجابها ان لا تعلم سيدتها بمجيئه وسالها عن صحة كرمانه

— ان سيدتي قد مرضت منذ انتها الرسالة اللعينة بزيجة فرنان

— من كتب لها

— انها رسالة من اسلامبول احرقتها احراقًا وللان لا نقدر على الحراك كان فرنان اخبرها بذلك سخرية منها في سفره مع عروسهِ لقضاء شهر العسل خارجًا ولكن الذنب على سيدتي التي مالت اليهِ

اذ قرع الجرس من داخل فاقفلت الخادمة الباب ودخلت وعاد لوسيان يجزه ضميرهُ اشد الوخز محنيا جبينهُ لكثرة تاملاتهِ واراد ان يواجه جوليا لامر ما فجعل ينتظرها كل يوم حيث اعتاد ان يراها ولسوء طالعه لم يجدها مرة ولكثرة ما تالم من جرا احزانهِ فقد الهمة على العمل وتغيرت احوالهُ كلها وقلت مكاسبهُ ورقت كتاباتهُ بعد ما كانت صلبة قاسية شديدة وصارت بعض شرارات من نفسهِ تنطبع على كل ما يكتب وكان للوسيان صواحب كثيرة هي التي افقدتهُ تقريبًا كل ما اورثه اهله ولكنهُ بعد ما علق بهوى كرمانه لم يعبأ لواحدة منهن ولها عنهن

وما زال لوسيان على تلك الحالة تعبًا من تنلبات الدنيا عليه كئيبًا كسير القلب لا يعرف الا الشكاية والبكا ولا يهيج في قلبهِ الا تذكار حبيبته كرمانه ويود ان يقتل نفسهُ لولا بقية امل في قلبهِ وهو لا يدري صدتهُ عن ارتكاب ذلك الاثم الجسيم وصبرته على تجرع مرارة دهره الجائر

الفصل الخامس عشر

٣٢ اذار

في هذا النهار نزل لوسيان قبل الغدا من بيتهِ وقصد الاليزة مزهرا منوّرا بكل ما يبهج الاعين وفي نفس لوسيان ان يجد عزا لهُ ثم ذهب تغدى واتجه الى شارع بروفنسا فابصر عجلة جوليا هناك وتقدم واذا بالخادمة ثائرة من الباب كالمجنونة فاعترض مسيرها

— دعني بجيانك . . . سيدتي تموت . . .

— اذن ادخل ولا ملام علي

— لا انها تلد

ولم يمنعهُ ذلك عن الدخول باخف من النسيم ولما صعد وجد جوليا

— أأنتَ هنا

— كيف كرمانه

— بخير الحمد لله

— اتخشى عليها

— لا لاتخف ان الامها كالام سائر النسآء ولكن اذهب حالاً

— أأذهب كسير القلب

— اعدك ان ادخلك اليها غداً

— اتكون لي هذه السعادة

— كن براحة بال

— واذا عرض خطر اياكِ ان لا تعلميني

وخرج لوسيان يهتز سروراً ويرجف قلقاً ولا نشرح كيف تقضي عليهِ ذلك الليل فان الخليّ الذي بعمره ما عرف الحب يستشير الى اضطراب لوسيان اذا اصيب قريب لهُ وقبل ان تطلع الشمس لبس ثيابهُ ورقش نفسهُ واعد موضعاً واسعاً لتلك المسرة العظيمة وجلس يقرأ حتى اضحى النهار فنزل محتفلاً وقصد شارع بروفنسا ولما وصل قرع الباب ففتحتهُ مريتا من داخل ودعتهُ الى ردهة الدار حيث كانت جوليا تنتظره فسلم عليها وجلس صامتاً يتحدثان عن حبهِ لكرمانه حتى اعلمت الخادمة ان سيدتها افاقت فذهبت جوليا الى غرفة كرمانه وقبلتها

— صبحك الله بخير ياعزيزتي كيف انت الان

— الحمد لله احسن حالاً

— قد اتى لوسيان لزيارتك فهل تقبلينهُ

— ماذا تقولين

— اشفقي عليه انهُ قتيل هواك ولكثرة ما حزن امس لألمك يود لو يراك

— اذن ناوليني المرآة لارقش نفسي قليلاً وان افزعتهُ هيئتي

ـ خذي المرآة وانظري انك كل يوم تزدادين جمالاً

ـ آمري له بالدخول

وبعد هنيهة اقبل لوسيان يرتجف فرحًا

ـ اسعد الله نهارك ياسيدتي

ـ ونهارك يالوسيان

ـ اهنئك بالمولود الجديد جعلك الله سعيدة في ايامه

ـ هنأنا الله بسلامتك يالوسيان كنت اظن اني لا اراك ابدًا وقد اتيت فاهلا وسهلا

ـ اشكر حنوك ياسيدتي وانعطافك عليّ

وعم الصمت في الغرفة فافتكر كل فيما يهمهُ واما لوسيان فانبسط قلبهُ كانهُ في نعيم وبقي ساعات يتامل هيئتها حتى سمع بكاء الفتبة الجديدة فاسرعت جوليا الى السرير ولفتها بنسيج من صوف وحملتها الى لوسيان فلما تامل جمالها في ذلك السن تنهد من نفس احر وقال

ـ سبحان الله ما اعظم قدرتهُ

ـ قد رايتها جميلة يالوسيان

ـ الفتاة سر امها والصبي سر ابيه

ـ بل هي سر فرنان ومنهُ استرقت لمحة جمالها

فاستاء لوسيان لذكر فرنان وقال في نفسهِ الا تزال تذكرهُ ياشقاي يا شقاي

وقبل الفتاة اي قبلة لانها ابنة كرمانه وان لوسيان احب كرمانه حتى امتلأَت نفسهُ منها صورًا جميلة ولو قدمت له السعادة بلاها لظنها النار وبقي عندها طول ذلك النهار ينظر اليها كلما افاقت ونامت ويعنني بها ويسليها عن اوجاعها الى ان استطال مقامهُ وخاف ان يزعجها فوقف وقال بصوت حزين

— اتسمح لي سيدتي بمداركتها في هذه الايام

فرقت عليهِ كرمانه

— تعال غدا يالوسيان فتاتي على الرحب

ومدت لهُ يدها الناصعة كانها من فضة فقبلها قبلة محرقة واستنارت ملامحهُ وخرج مسرورًا نوعًا لايامل ولكنهُ يحبها من كل نفسهِ

الفصل الخامس عشر

الجنون

وفي الغد عند ما اتت داية كرمانه لتثبت ولادة الفتية لدى الحكومة قالت كرمانه لجوليا

— متى نعمد الولد

— الا تنتظرين ايامًا فنقيم الحفلة لولدينا كليهما

— الله المدبر اصبر

وبعد ساعة رجعت الداية بالولد ومعها ورقة تثبيته فتلتها كرمانه وسقطت دمعة من عينها تغلو حرارة اذ تلت هذه العبارة « من ابٍ غير معروف » والتفتت الى صورة فرنان وجثت على رجليها اسفي عليك يافرنان وعلى نفسي اكثر

على ان طبيب كرمانه منعها عن ارضاع ابنها وامر ان تولى بظئر وكان كما امر الطبيب لان صحة الولد اقتضت ذلك اما جوليا فحان لها ان تعود الى بيتها لان زوجها استاخرها وكتب يعاتبها عن اهمالها لهُ مدة من الزمان لتعتني بصديقتها فوعدتهُ انها تذهب مساء ذلك اليوم وقارب الموعد فلم تقدر ان تدعها وحدها حتى ياتى لوسيان ومن غريب الاتفاق انهُ تاخر عن معتاده ذلك اليوم فركبت جوليا عجلة وذهبت اليهِ واذا بهِ قد

دخل قبلها بدقيقة فتماهلت في الصعود على الدرج الى ان بلغت غرفة لوسيان فنظرت من زجاج النافذة واذا به يرقص مرتلاً

قد ماتت قد ماتت　　يا سعدي ياسعدي

والاماني وافت　　يا سعدي ياسعدي

فظنت الجنون قد ضرب براسهِ ودخلت عليهِ خجلة فقابلها بضحكة حاكت الصدى في كل اطراف الدار وقال

ياجوليا يا جوليا　　قد ماتت قد ماتت

وزالت عن عيني　　وفاتت وفاتت

ان لي ابنة عم غنية كنت اخشي ان تموت فتبقي مالها للدير ولكنها اتاها ابليس على غير انتظار فخطف نفسها الي فوق واليوم ذهبت للاستيلاء على اموالها التي يرجع عليّ منها سنويًا ٣٥ الف فرنك فهل فهمت سبب سروري وان الله يحسن تدبير الامور فاني امس بكيت دمًا لبكاء كرمانه ولو كنت غنيًا لقلت لها لاتبكي يا اما حزينة كفكفي عبراتك فان ابنتك يكون لها اسما ولكن مافات امس لايفوت اليوم باذن الله

— ما اطيب واشرف قلبك ولكن استودعك الله اني قد اتيت في طلبك لتذهب الى بيت كرمانه لتعزيها لانها وحدها فاحسن الاعتناء بها

— اطير اليه بلا تاخير

وتناول كمتهُ بسرعه برق وركب عجلة مرعليها وما عتم ان وصل الى شارع بروفنسا وهناك نزل وقرع الباب فقابلتهُ مريتا وحيتهُ بهذه الجملة

— المرض مشتد فادخل لاذهب الى طبيب

فقفز لوسيان وبخطوتين تسلق السلم وصعد الى غرفة كرمانه فوجدها ممتدة

— كيف انت ياسيدتي كرمانه

— اشكرك ياحبيبي اني اتعذب ولكن قبلة منك تحييني بل قبل ذلك يافرنان يجب ان اقتل امراتك الجديدة لانها سبب هلاكي . وانحدرت من سريرها فهدأها لوسيان والدمع في عينيهِ حسرة على نفسهِ وعلى حالها ثم انطرح على كرسي وستر وجههُ بيديهِ وطفحت الشهقات في قلبهِ فتنفس الصعداء طويلاً وكاد يطير عقلهُ فيقتل نفسهُ او يقتل فرنان

ولما عادت الى الفراش التفتت الى رسم فرنان وهو الى يمين سريرها ورتلت لهُ ترتيلة ملاك مشتاق اوحوا بعد فقد النعيم ثم نامت من العياء منهوكة محلولة القوى . اذ اقبل الطبيب فجس نبضها وسال اذا كان اصابها عارض فاجاب لوسيان

— عارض قوي ياطبيب

فوصف لها ادوية لم يمنع استعمالها وكثرة المعالجة ان العارض يطول على كرمانه اياماً بعدها حين كانت جوليا قاطعة الامل من ارتداد عقلها افاقت كرمانه وتكلمت كعادتها كلام عاقلة وسالت ان تقبل ابنتها فقدمت لها

. . . .

وبعد ايام شفيت كرمانه فاذن لها الطبيب بترك الفراش والتجول في فناء الدار واصطلحت معدتها وبرق وجهها فبشرها الطبيب بالصحة ولكنهُ اختلى بجوليا فقال لها

— ان هذه المرأة مصابة بمرض لايرحم انساناً فان بها داء صدر جلب اهالهُ اذى شديداً الى الكبد ولا سيما الى الرئة

— نعم لقد طالما نظرنا الى سعالها كضعف لا اكثر وما انتبهنا لتلك الدلائل التي تسوق الى القبر ورب حائط واقف تكفيهِ هبة ريح ليسقط اسفي عليها ولكن الا تعيش طويلاً

— شهر شهران اربعة على الاكثر وقد اخبرتك الحقيقة فلا تحزني

شديدًا لانك ستريدين لها الموت لطول عذابها

— ياويلاه ستتعذب طويلاً

—لعل الله يرحمها في وحدتها و يرحم ابنتها المسكينة انهُ ابو المنفردين ومعزي الحزانى

الفصل السادس عشر

الحب العقيم

في شهر كانون الثاني بينما كرمانه جالسة قبالة نافذة غرفتها اذ وقعت عينها على لوسيان

— هذا لوسيان

— فنهضت جوليا هي نفسها للقائهِ قلقة على صحة كرمانة خائفة على مستقبلها

— مرحبًا بك يالوسيان

— كيف حالها اليوم

— اصفى والحمد لله وفيهِ دلالة على الخير ولكن قبل أن تدخل الم نكلم كرمانه عن مقاصدك وغايتك

— انتظر ان تشفى

— لِمَ الانتظار

— ايجوز لي الان

— يجوز لاشك وانا اكفل لك القبول

— بشرك الله بالخير ياجوليا

ودخل خائفًا الى غرفتها وسلم عليها بكل احترام ثم جلس حتى دخلت الخادمة بالفتية فقبلتها امها ولفتها باثواب من صوف خوف البرد واذنت

للمرضع ان تذهب بها الى منتزه فرج في دراية من الهواء الشديد والشمس الحارة

وخلا لوسيان وإياها فاغتنم الفرصة لمحادثتها بملء الحرية فقال

— لايخفاك ياسيدتي اني احبك وقد ظننت يوم بقيت وحدي صدوقاً ودوداً لك اني لاتصطاد قلبي عيونك ولا تصيب صدري جفونك ولكن نفذت السهام وانا لا ادري فشرعت اجري ولا اعلم كيف اجري الى ان ابعدتني وإذ ذاك لا تسالي عن الآلام التي اصابتني فهي عديدة ولا الجراح التي نالتني فهي شديدة لا يصفها لساني ولا يحس بها غير جنانك الذي عشق وجناني وقد طالما عرض لي فكر احببت ان اقفك عليهِ فصدتني عنهُ خصومة السعد وكنت اذوب عليك من الشوق والوجد ولكن مالي ولطول الحديث وتوقف قليلاً ينظر اليها خشية وتضرعاً ثم اتم

ـــ اتريدين ان اكون حليلاً لك

ـ اترضى بي انت

ـــ يا حبذا الف مرة لو سمحت

وجثا على قدميها وقبل يدها بهيئة سائل متضرع

ـــ اشكرك يالوسيان شكر عاجزة عن المكافاة ولكن ياحبيبي هاءنذا مخبرتك اخفى سر عندي وهو اني عندما استرحت قليلاً من مرضي جاء الطبيب واخبر جوليا على حدة اني لا اعيش طويلاً وقد سمعتهُ باذني فلم اعجب ولا دهشت لما سمعت فاياك ان تتزوج بي اذ اني عن قريب يقتلني مرضي فلا ابقي لك الا الحسرة والبكاء وولداً يعترض مستقبلك فاذهب رعاك الله واجتهد بالمال الذي منحك الله ان تتزوج بفتاة شابة جميلة غنية محبة اني عادمة كل هذه الصفات فما النفع مني

وما سمع لوسيان هذا الكلام حتى امتلأ قلبهُ من الكلام فطلب السلام وهجره السلام ودهش دهشة مسافر وصل الى راس جبل فنبههُ رجل عن

هاوية والقى حجرًا فيها ليريه ما ابعد غورها واتمت كرمانه كلامها مادة لهُ يدها البيضاء التي قبلها بشوق

ــ دعني احبك ما قدرت والبث صديقي ولا تحمل البلاء على ظهرك ثم تشكو منهُ

ــ ما اتعسني يا سيدتي اني ولدت تحت طالع سيء ولا اموت الا شهيدًا

ــ عن قريب اموت فتسلوني وتلهو عني بغيري

ــ والله لو حدث ان اصابك ما اكره لقتلت نفسي وحملنا على نعش واحد وزفت انفسنا بعضها الى البعض في الابدية

الفصل السابع عشر

متى يعود الربيع

وما زالت كرمانة كارهة للحياة ترى الموت بعين باردة وتحس بحفر الضريح كما لو كان مقام راحة حتى ازهرت الارض وتجدد النبات وكسا الطبيعة العريانة وزهت انوار الشمس وهبت نسمات الاوراق تحيي الاغصان فتنحني لها والزهور فتبسم وصحت نفس كرمانة مع صحة الهواء فتجدد فيها ميلها الي الحيوة وخوفها على ابنتها ان تتعذب بعد موتها واملت ان تعود لها السلامة كما عاد الربيع فتشددت وهبت من فراشها باسمة قوية وقابلت جوليا بفرح

ــ ان الله يرحم امثالي ياجوليا ولعلي اشفى

ــ هذا ما اتمنى لك ولي ياعزيزتي

فقبلتها كرمانه قبلة شكر

ــ انظري الى الاغصان كيف تعانقت بعد الافتراق والعود قد

كسي الغلائل بعد ما اخذت يد كانون في تجريده والطير في اعلى الغصون كانها ملائكة تصدح بالحان شجية وهذا ماجدد شبابي فهلم بنا ناكل انني جائعة

فاعجبت جوليا بصاحبتها لانها نسيت الخطر المحدق بكرمانه وسرت بقبولها للطعام مما يدل على اقبال العافية وما فرغت كرمانه من الغداء حتى احست بتجرح في صدرها فاسرعت الى فراشها وانطرحت صفراء مرتجفة كالورقة ثم تدفق الدم من فمها واختبطت اشد الاختباط . اذ اقبلت مريتا بالطبيب فنظرها و بعد فحصها تنحى بجوليا فاخبرها ان ذلك ابتداء النهاية وما استراحت كرمانه قليلاً حتى مدت يدها لجوليا

ـ ياحبيبتي اموت قريبًا

ـ ما لك اصبحت جبانة

ـ و يلاه ياجوليا كيف الامال تنهدم بعد بنائها بدقيقة

ـ هذا عارض يمضي سريعًا فلا تخافي

ـ الم يات لوسيان اليوم

ـ انهُ يخشى اقلاقك يا كرمانه

ـ انهُ يحبني

ـ اشد المحبة

ـ وانهُ عرض علي ان اتزوج بهِ

ـ اعلم ذلك

ـ لكنني لم ارضَ بهِ

ـ الا تشفقين على ولدك

ـ لا اريد ان اسود صحيفة استقبالهِ ولكن املي بك ياجوليا

ـ عليَّ اتكلي فاني اذا حدث ما اكره لا سمح الله آخذها تحت حمايتي واحبها كولدي ولكن لا اظنك تحتاجين اليَّ وقد طامنني الطبيب انك

تشفين وترين شباب ابنتك وزفافها على الامير اوبروف ابني

ـ ان هذه الكلمات ياجوليا سقطت اسهماً على قلبي فاني سمعها ترن في فضاء هائل

ــ لاتحزني يا كرمانه وتشجعي انك تشفين ماذا تسمين ابنتك

ــ لم افتكر بذلك واذا مت فانت وكيلتها

ثم عرض لكرمانه سعال جديد بصقت بعده الدم وصاحت

ــ ياجوليا قد دنا مماتي

ــ لا تخشي يا كرمانه لاتخشي

واذ ذاك دخل لوسيان صامتاً فاذ رآها على تلك الحال جلس مرتجفاً الى جانب فقالت كرمانه لجوليا

ـ يا حبيبتي قد دنا مماتي ولما بصقت الدم احسست ان عظامي تهدمت وقلبي تشقق فابتهل اليك ان تستجلبي لي فرنان فاراه اخر مرة لاموت غير حزينة

واذا بلوسيان قد مس جوليا بثوبها فالتفتت اليهِ بدهشة وقال لها

ـ عدِيها انهُ ياتي بلا شك فانا ذاهب اليهِ

الفصل الثامن عشر

الشجاعة

وما مضت الا دقائق حتى دخل لوسيان الى منزل بالبان على الرغم منهُ لانهُ كان ساعياً في غير مصلحته ولكنه اشفاقاً عليهِ او حباً لها كلف نفسهُ هذا العناء وكتب لفرنان هذه العبارة

«ايرحمني المركيز فرنان و ينعم عليَّ بمواجهتهِ دقيقة لامر ما»

ثم نزل فرنان متعجباً كيف زاره صديقهُ لوسيان بعد مدة طويلة من

النسيان وذا كرًا سالف وداده وصداقته فاتحًا لهُ يديهِ فجثا امامهُ لوسيان مصفر الوجه يرتجف ارتجافًا وقال بصوت مقطع

ـ رحمةً يافرنان لي ولكرمانه

فامتقع وجه فرنان واضطرمت نفسهُ وما فهم شان لوسيان

ـ ماذا تريد يا عزيزي

ـ انها تنزع النزع الاخير وتمنى ان تقبلك للوداع

ـ اهي ارسلتك اليَّ

ـ لا بل قالت ذلك لجوليا وكنت هناك فسمعت واتيتك مستعجلاً فلا تمهل عن المساء لعلك لاتجدها حية

فارتبك فرنان في امره وحار كيف يستعمل حيلة ليتوصل بها الى وداع كرمانه ولكنه ظن ذلك طيشًا من لوسيان

ـ اتظن ان ذهابي واجب

ـ واوجب من واجب

ـ ولكن مالك انت كيب تعيس كانها نسيبة لك

ـ اشفق عليها يافرنان وانني احبها

فاطرق فرنان قليلاً بالارض ثم قال

ـ لا لا اذهب ان ذلك يوقع عليَّ محظورات عديدة امام الناس وعروسي وامي فاذا كانت محتاجة الى دراهم قل لي لارسل لها دون ان امضي

ـ ان بعدك من يصطرف لها ولكنها ميتة بهواك فتريد قبل الموت ان تراك وهل تبخل يافرنان بزيارة وداع على التي اقسمت لها بالقيام على ولائها ومحبتها الابدية والتي جعلت ايام صباك اشهى من العسل وعبدتك من قبل ولم تزل حتى انها تموت لهجرك وانت عنها لا تسل فتاثر فرنان لهذا الكلام ومر بباله ذكر ايامهِ السالفة وكيف انقطعت بعدها قلوبهم

المتآلفة وسقطت دمعة على وجنتهِ الآسفة

— اعدك اني اذهب مساء فهل تكون هناك

ـ لاشك ياصديقي فنساعدها عند موتها ونخفف عليها حمل الهلاك

فانحنى لوسيان شكرًا لصديقهِ وذهب الى حيث اتى وعاد فرنان الى غرفته واختلى بنفسهِ

الفصل التاسع عشر

قبلة الوداع

في الثالث والعشرين من ايار كانت جوليا قرب كرمانه تلبسها ثياب زينتها ودلائل الحزن على وجهها لاتكاد تنطق بكلمة ولا تحدق بكرمانه مخافة ان تسيل دموعها فقالت كرمانه لماذا تلبسيني هذه الثياب الجميلة لِمَ هذه الازهار المحدقة بي لِمَ هذه الزينة زينة العرس اواه ايحسنون لي هيئة الموت او لأودع الدنيا باسمة غير كئيبة واحسرتاه

فاجابت جوليا

— لا بل نريد ان يحييك المنظر والرائحة

اذ قرع الباب فخفق قلب جوليا وخرجت لاستقبال الداخل واذا بهِ الطبيب فذهبت بهِ الى غرفة كرمانه و بعد فحصها بتدقيق سالها

ـ كيف انت الليلة

ـ بحمد الله احسن حالاً

— تصبري وعن قريب تشفين

وودعها مبتسماً وتبعتهُ جوليا فقال لها

ـ لم يبق لها الا ساعات قلائل من العمر

ـ ولكن انضر بها دهشة فرح

ـ لاتحرميها هذه الدهشة فانها ميتة لامحالة ولكن يحسن ان تخبر بها قبل

فرجفت جوليا اي ارتجاف ولكنها كظمت خوفها ورجعت باسمة

— ما عليك يا كرمانة خشية فانك احسن حالاً من امس ولزيادة الخير ابشرك

— بماذا تبشريني

— بقرب تمام ما اشتهت نفسك

— ماذا اشتهيت وتم انا المسكينة

— عديني انك لا تضطربين لئلا تضري بنفسك

— اعدك

— ان فرنان آتٍ عن قريب

فغشي على كرمانة بضع دقائق من الفرح وما افاقت حتى وقفت عجلة امام الدار فانتفضت جوليا واختفت في غرفة الزينة وما لبث ان دخل فرنان مزداناً بثياب انيقة فقادتهُ الخادمة الى غرفة سيدتها توًّا وهناك يا للمشهد ما ارقهُ واحنهُ ويا للحب ما اجنهُ اخذت كرمانة تقبلهُ فلا تروى وتضمهُ الى صدرها باذلة ما بقي لها من القوى واجلستهُ الى جانبها وحولت وجهها اليهِ لتتأمل ذلك الحبيب الذي طالما اشتهت ان تسمع من اخباره وان تقع على نظرة منهُ فحرمتها وقالت

ـ أأنت هنا يا حبيبي يا فرنان الان اموت مشروحة الصدر ولكن لا لا اموت يا حياة عودي وطيبي فقد عاد من انا شهيدة حبه حياتي اليفي حبيبي قد عاد فرنان يا سماء أأشفقتِ عليَّ في هذه الساعة ما اعظم هذه المسرة نعم ما اعظمها يا ليت قلبي لا يضيق بها يا ليت صدري الضعيف يحتملها وانت يا فرنان ما اجملك امام هذه المعذبة البشيعة

وما زال فرنان يتأملها ويسمع حديث قلبها ويعجب من ذلك الوداد الصافي حتى بعث زفرةً فيها النار وقال

— احبكِ يا كرمانه احبك وتحبين وتسودين عليَّ يا عزيزتي

— نعم قد قبح منظري ولكني ابقيت لك شعري الاشقر لانك احببته فقبل شعرها واشتمهُ مليا لانهُ مملوء من عبير الزمان الماضي وتحسر على تلك الزهرة التي اذبلها

— فقال كيف انتِ الان يا حبيبتي كرمانة

— اواه لو تدري ما قاسيت من العذاب وما تقلب عليَّ من ضروب الهم والاكتئاب. لو تسأل هذه الغرفة لو تسأل صورتك هذه المعلقة عن عيني ولكن الوصف يضعف الحقيقة فمالي والوصف

— يا ويل قلبي المعذب

— وحياتك يا فرنان لم تمضِ دقيقة او ساعة او يوم من حياتي الا قدم ضحية لك ولطالما ذكرت ذلك الماضي فنقطع قلبي وتمزقت احشاي وسقطت معيبة تعبة ولطالما اقتصصت من كبدي لفراقك من حيث لم اعرف ان ابقيك لي ولكن اشكرك يا ربي على السعادة الاخيرة ـ اشكرك على هذه السعادة التي طفح بها قلبي انها اكثر مما استحق فاموت سعيدة

— لا لا تموتين لا اريد ان تموتي يا عزيزتي اني احبك كل المحبة

ـ أأنت تحبني فاجعلك سعيدًا وافني نفسي كالشمعة لاضيئك واعبدك يا حياتي جاثية على قدمي امامك الى مماتي والان سامحني يا فرنان عما اذنبت بهِ اليك وانسَ ما لعلي كدرتك بهِ فان النفي قد لوعني

وإقضِ لي ياحبيب ما انت قاضٍ فعليَّ الجمال قد ولَّاكا

ولا اطلب منك سوى قلبك ولا اسالك الا عن قلبك لانهُ لي نعم لي هذه الذخيرة التي لا يضرب لها بالاملاق وانا غيورة عليها ولا اريدها الا لي

ولما فرغت من هذا الكلام بكت اشد البكاء ثم ابتسمت فرحًا

— افتح الشباك يا فرنان قد ضاق نفسي

وانت يا ربي لا تقصفني في شبابي وارحم ابنتي الصغيرة

وحياتك يافرنان لا ارهب الموت الا لانهُ يفصلني عنك وعن ابنتي . الم ترَها يا فرنان انها اجمل من الملاك وهي صورتك تماماً ولولاها لقتلت نفسي وقنعت ان ادفن تحت ممر عجلة فرنان وكفاني ذلك

اغار عليك من عيني ومني　　ومنك ومن مكانك والزمانِ
ولو اني وضعتك في عيوني　　الى يوم القيامة ما كفاني

ــ لله يا كرمانه ما اشرف قلبك وما اصدق هواكِ عيشي فاني عبدك وخادمك وحبيبك ما دمت حيًّا

وهنا جمد الدم في عروق فرنان لما رأى من ازدياد اصفرارها وضعف حراكها

ثم مدت لهُ يدها النحيلة وضمتهُ الى صدرها آخر مرة وقبلتهُ وقبلها وصاحت صيحة اليأس الاخيرة

ــ حبيبي فرنان ابنتي ابنتي

وسكتت باسمة صافيةً مشروحة الصدر فوضع فرنان يده على قلبها ثم على فمها واهمل ذراعها من يده فسقط على الفراش وضمها بشدة اليهِ فلم تتحرك

فصرخ من صميم فؤاده وجثا على قدميهِ امام الفراش باكيًا متنهدًا اما كرمانة فنامت مستريحة باسمة النوم الابدي في ذلك الليل الهائل الهادىء الذي لا يطلع الفجر بعده يا للاسف ماتت كرمانه

الفصل العشرون
البلآء بستجر البلآء

وكان لوسيان قد اتى في اثناء مواجهة فرنان وكرمانة واختلى مع جوليا كل منهما تائه في عالم مختلف من الافكار حتى سمعا صوت فرنان

فطارا الى الغرفة وتامل لوسيان كرمانة ميتة فخفق قلبه والتفتت جوليا الى ذلك الرأس المحني فقالت

على قوامكِ تبكي اغصن البانِ وتندب الطير حزناً فوق اغصانِ

يا حبيبتي كرمانة سلامة لعيونك الجميلة سلامة لخدك الوردي سلامة لقلبك الصافي وتهيج لوسيان لهذا الكلام فصاح

يا ربي اهذه كرمانة ثم جثا على قدميهِ امامها

— عفوك ايتها الميتة الكريمة عن كل ما اسأت بهِ اليك وما اغضبتك بهِ اسفي عليك يا حبيبة عاشت شقية وما قدرت ان اعينها يا نوراً كانت بهِ استنارة قلبي فاطفئ واظلم فؤادي انتِ يامن اوحيتِ لي تلك الحياة الجديدة للنفس ذلك الشقاء الذي كلهُ سرور الحب وليس لي ما اسامحك عنهُ فانك انت دالتي الى السعادة فسافري رعاكِ الله وعما قريب اتبعكِ ثم تقدم نحوها وقبل ثغرها البارد

— هذه قبلة القران يا خطيبتي الجميلة وان الموت لا شك يجمع ما شتت العمر

وعند ذلك تقدم فرنان فمد يدهُ الى لوسيان

— والان كن اليف قلبي لان الشكوى امّ المصايين

وبقي فرنان تضطرم نفسهُ حزناً حتى اقبل على كرمانه

ـ يا سماء ان كان عندك صاعقة فارشقيني بها الان لاني انا الجاني القاتل هذه المحبة المخلصة ويا قلب انسحق وتفطر بل احترق واصبح كالفحم المضرم وافنَ اسى عليها وياعين ما دام في آماقي ذرة ماء تسقين بها تراب هذه المسكينة فجودي بها فانك تجودين على من لم يبخل عليكِ بنفسهِ . اذ قرع الباب بشدة فسكت فرنان وفتح الباب واذا بالخادمة قد دخلت وسلمتهُ رسالة مكتوباً فيها ـ « انت على قدمي معشوقة لك وامك تنزع النزع الاخير » فتلا هذه الاسطر بصوت مرتفع غير منتبه لمن حولهُ وتقدم الى

كرمانه فاشتم شعرها مليا ثم قبلها باسرع مما كانت سعادتها معهُ وانخطف كالبرق الى الخارج كانما اصابهُ جنون

واحدقت جوليا ولوسيان ومريتا بسرير الميتة فصلت مريتا صلوات الاموات ثم تقدمت والحسرة تكاد تخنقها وقبلت يد سيدتها بكل وقار واحترام وذهبت تخفي دموعها واحزانها على تلك التي لم يعرف غير مريتا ما اصابها من الهموم والاكدار والالام

واما لوسيان فما زال صدره يوغر ثم يخمد حتى استوى على قدميهِ والتفت الى صدره

— ايتها النسمات المحرقة التي هبت في نفسي الحزينة لِمَ لم تذهبي بها وتخلصيني و ياحب الم اهمل المجد والدرهم والحرية الاَّ لتخطف من قلبي آخر امل انعزي بهِ ثم تقدم الى كرمانة — هذه رؤيا ما لا يرى غداً الموت يحل الرباطات الدنيوية وتدخل الاجزاء في الابدية ولكن كاني بالارض فرحة لاقتبال قلب كرمانة انهُ كنز حب ثمين وها انا اتبعهُ الى التراب فعليك السلام يا دنيا و يا آمال و يا مسرات و يا قفرة مكروهة لم اعرف بها الا التنهد والبكاء اليك . اذهب يا كرمانة فافتحي ذراعيك لاقتبالي يا خطيبتي

وسقط على الارض مغشياً عليهِ خاوي القوى فاستدعت جوليا بعجلة وارسلت بها لوسيان الى بيتهِ وهو غائب الرشد لان الادوية لم تنفعهُ وقد دعي لهُ طبيب اكتشف من ملامحه ان تلك اشارة حمى خبيثة لا يبعد ان تذهب بعمره

ولما عادت مريتا الى جوليا اخبرتها بما قال الطبيب فاحست انها تموت تلك الليلة لفرط ما توالت عليها الضربات

وعند المساء ركب فرنان عجلته الى التياترو فلما دخل اخذ يسمع الاغاني و يسر غير قلق حتى دعيَ الى الغنا هو وامرأته فرفع عليهما الستار وطوقتهما الابصار وجعلا يغنيان بما فتن الحضور وملأهم من السرور حتى

فرغا فرجعا الى مكانهما واجتمع الناس يهنئانهما وبعد هنيهة ذكر فرنان موعده فانساب بين الجماعة وخرج من التياترو فركب عجلته الى شارع بروفنسا ثم ارجع العجلة الى حيث كانت وصعد لمواجهة كرمانة وكانت ام فربان قد اقنعتهُ ان يسكن معها هو وامرأته لانها احست بدنوّ اجلها لما الم بها من الضعف الشديد وانحطاط الهمة فقبل ان يذهب الى الملعب اقبل فرنان ليقبل امهُ كعادتهِ فقالت

— انت ذاهب الى الملعب مع متيلده

— نعم يا امي

— اترجعان بعد طويل

— كالعادة

— اريد ان اراك قبل النوم ولكنني تعبة جدًّا فاخاف ان ارقد دون هذه المسرة

— اذا وجدتك نائمة فافيقك

— اذن تفيقني بلا شك

ثم قبلها فرنان ومضى تدعو لهُ امهُ بالسعادة وتمنى ان يتفق قلبهُ وقلب امرأته لانهما على تضاد تام ثم قالت

لو احبها واحبتهُ كثيرًا نسيني ولكنني ابدًا اعزيه واسليه فلا بأس — ثم نامت متبسمة على كرسيها وبعد نصف ساعة اقبلت عليها خادمتها فوجدتها صفراء مفزعة فافاقتها لتنام على سريرها ولكن القضاء وقع فلم تتحرك فاستدعت طبيب العائلة وبعثت خادمًا لطلب فربان وعند وصوله سلم الورقة الى سيدته فاسرعت الى العجلة وقالت للسائق

— الم ترَ كيف اتجه سيدك

— نعم قد اوصلتهُ الى شارع بروفنسا

— اذن طر اليهِ

فاسمع الخيل سوطه ومضت العجلة كالبرق

اما منيلدة فنسيت مصيبة كنتها وجعلت تفتكر فيما يعمل فرنان بشارع بروفنسا وما لبثت ان وصلت فاستسألت عن فرنان واذا بالخادم عاد واجابها انهُ في ذلك البيت جاث على اقدام معشوقة لهُ فاخرجت من جيبها قلمًا وورقة ورقمت لهُ الاسطر التي قرأناها ثم نزل فرنان كانما اصابهُ جنون وتوجها نحو المنزل وفي طريقهما سال فرنان امراته

— ماذا حدث لامي

— لو بقيت معي لعلمت وما اضعت وقتًا ثمينًا لعلك تندم عليهِ فتعلَم ولا اذكر لك كم اسات اليَّ بتركي وحدي في الملعب بين الناس ومجيئك الى بيت معشوقة ولكن ارى الحزن على وجهك واقرأُ التوبة في عينيك وآمل ان تنقطع هذه المواصلة

— قدْ ماتت أوما كفى

وصمت العروسان كل يفتكر في امر الى ان وصلا فاسرعا الى حيث كانت المركيزة فامسك فرنان يد امهِ واحس بحركة

ـ انها لم تمت يا طبيب لم تمت

فرجع الطبيب وعالجها فقال لفرنان

ـ انها قد ماتت والذي شعرت بهِ وهم منك

— ويلاه واحسرتاه واماه

ـ كيف ماتت ومتى

فاجابتهُ الخادمة

— بعد ذهاب سيدي بساعة فقط على انني حسبتها نائمة اولاً

— واماه واحبيبتاه من لي بعدك وكيف اتعزى على فقدك اتيت فكان عيناك مطفأتين وشفتاك مطبقتين ولكن قلبك ذاكر ما وعدتني بهِ لوداعي الاخير وهزت يدك يدي وافقت لي كما وعدتني

وقضى فرنان ليلهُ على قدمي امهِ يبكي امر البكاء و يتنفس الصعداء وانحنى من فرط الحزن ولعل كرمانة نالت نصيباً من حرات دموعه

الفصل الحادي والعشرين

الى ابنتي

وثاني ذلك اليوم خرجوا بمحمل مدام دي بالبان بكل وقار والناس جماهير عديدة يشيعونها وما بينهم فرنان منحني الظهر كاسف البال اصفر الوجه يبكي تلك الام الحنون التي فقد بفقدها سنداً قوياً ومدبراً حكيماً اما كرمانه ففي تلك الساعة نفسها نقلت الى الكنيسة فصلي عليها ثم خرج معها قليل من الناس كان في مقدمتهم شاب اصلع الراس هيّب عليهِ دلالة الامارة وامرأة ذهبية الشعر براقة العينين صفراء كالخيال لفرط حزنها وهي جوليا ولما استودعوها التراب انفضت الجماعة وعادت جوليا الى بيت كرمانه فوجدت هناك خادماً منتظراً لها اعطاها هذه الرسالة وعنوانها «الى ابنتي»

« عزيزتي جوليا انني متزوج فلا يمكنني ان اهتم لها فابتهل اليك ان تقبلي مني هذه الاوراق الموجودة طي الرسالة بقيمة مئة الف فرنك وتعتني بهذه اليتيمة ولك الجزاء عند الله »

(ف ب)

فصرفت جوليا الخادم وهي شاكية من قسوة فرنان على ابنتهِ ووجدت ان مستقبل الفتاة لا يكون الا سعيداً بمالها من الارث عن امها وما اهداها ابوها وما زالت تتضرع الى زوجها بحرارة حتى قبل ان تربى الفتاة في بيتهِ وفي الغد وصل الخادم كتاب ففض غلافهُ

واذا به غلاف ثانٍ مكتوب فيهِ « يسلم يداً بيد الى المركيز فرنان دي

بالبان» فاخذ الكتاب وصندوقة مرصعة باللؤلوء الثمين الى سيده ففتح فرنان تلك الصندوقة وراى بها رسائله الى كرمانه وشيئًا من شعرها تذكارًا فقبل الشعر واخفى الصندوقة واخذت جوليا جزءًا من شعر صديقتها ذكرًا لما توالى على حياتها من المصائب بسببها

الفصل الثاني والعشرون

لوسيان المسكين

وانعم الله على جوليا بعد شهرين بولد ذكر تحسدها عليهِ الملكات التي تريد وريثًا فسر الامير بهِ اشد المسرة اما لوسان فشفي ولم يرجع الى الصواب بل كسا غرفتهُ بالسواد ورفع في وسطها شكل محمل من خشب توقد عليهِ الشموع ليلاً ونهارًا وقضى الزمان يبكي حبيبتهُ ويرى من خلال الظلمة التي بات فيها نور الامل ان يجمعهُ القبر واياها على ان جوليا ما قصرت بمساعدتهِ في مصابهِ وتعزيتهِ وتحريض الاطباء على الاعتنا بهِ حتى دنا سفرها فشار عليها طبيب ان يؤخذ الى مستشفى الطبيب بلنش اذ ما لهُ اسره في تلك العسره وهناك تكون لهُ غرفة سودًا كما يريد فيجثو امام المحمل ويصلي ويبكي تلك التي سبقتهُ نفسها كالشعلة المحرقة الى فضا الابدية

القسم الثاني

الفصل الثالث والعشرون

بعد عشرين سنة

دعا ذات يوم سفير ايطاليا اشراف مدينة بطرسبرج الى مرقص بديع فكان ولديمير اخرمن اقبل الى المرقص وعند دخولهِ قالت امراة

ـ هذا ابن الاميراو بيروف

فاجابتها امرأة من سقليا كانت الى جنبها

ـ انهُ كوكب يسطع وان ظهورهُ يستلفت ابصارًا كثيرة فقال القائد منسكي

ـ ولكنَّ لهُ احاديث

ـ ايمكن ان نعرف منها شيئًا

ـ لا اذكر الّا انهُ ذو قلب اضرمهُ الهوى حتى لا يطفئ نارهُ جليدا فاقنا

ـ وهل يجوز ان نسأل عن تلك الفتاة التي شب على هواها

ـ لا اقول اسمها لاني لا اعرفهُ ولكن انظريها داخلة هذه هي

فتحولت الابصار الى باب المنتدي واذا بفتاة متكئة على ذراع شيخ بارد الظاهر اصلع الجبهة متجعد الوجه ذو لحية بيضاء

وتلك الفتاة بجمال منظرها و بذلة ملابسها امتازت عن كل النساء التي كانت هناك

وكانت فتاة جميلة العنق عيناها كعيني الغزالة ووجهها ابيض من العاج وقوامها كقضيب الخيزران لابسة من الحلى ما يشوق ومزدانة من الثياب السود بما يصفو للعين و يروق بلا تصنع ولا شطارة في كثرة اللالي

وجنس الحرير الغالي وظهرت بنور الشمع كانها صورة الجمال وآية الكمال وقد صدق فيها من قال

انسية لورآتها الشمس ما طلعت ولو رآها قضيب البان لم يمس

اما ولديير فمنذ دخل المرقص لم يهتم للنساء التي في المنتدى بملابسها الملوكية واحاديثها الطليه وفي تلك الجلبة المستعذبة لم يصغ ِ الاّ الى صوت فكره

— اتأتي هي

وعندما رآها مقبلة والناس محدقون بها من كل جانب يتاملونها باعجاب انشرح صدره ولاحت على وجههِ دلائل الصفا بعد الاضطراب فتقدم اليها مرتعدة ترتجف لافتتان الناس بها وامسك بيدها وجالا حول المنتدى يسلمان على الحضور وهو غير مصدق ان يدها في يده كمن طالما انتظر رؤيا شهية فلما عادت خاف ان تكون قد كذبتهُ عيناه

فقالت المراة الصقليه للقائد

— كأني قد لمحت هذه الفتاة مرة

— انها قد رتلت امس في الكنيسة بما لم اسمع مثلهُ البتة وهذه اول مرة دخلت في مجتمع

— قد فطنت اني سمعت صوتها والحق يقال اني كدت اسكر في الكنيسة واظنها نسيبة الامير اوبروف

— بل هي لقيطة انت بها امرأتهُ وهي تحبها كما تحب ابنها ولكن الامير يبغضها

— من يبغض فتاة كهذه

— يبغضها لان ابنهُ مغرم بها وهي من عمره وقد ربيت معهُ

— اذن هي في سن العشرين ولكن كيف اتى بها الى المرقص مع ابنهِ

— يأمل ان تصيب حظوة عند رجل فيزوجها له ولعل ابنهُ يرى فتاة غنية فيقرنهُ بها

ــ ارى انهُ طماع

ــ بل لا يريد ان يصيب ابنهُ ما اصابهُ هو فانهُ تزوج فتاة بلا حسب ولا نسب وهي فرنسوية . واخذت النسآء التي حواليهم ترشق امراة الامير بسهام قدح خارقة فقال القائد

— ما لنا واياها قد مانت شبيبتها والله يرحم الاموات فلنحترم الشعر الابيض في الذين جازوا الخمسين سنة . وما زال ولديمير يرقص مع مرتا تكاد تطير من الخفة ويكاد يجن من الغرام حتى فرغا من الرقص فاجلسها مكانهُ وجلس قريبًا منها يتحادثان بصوت منخفض

— لمَ تاخرت عن المجيء يامرتا

— ظننت اباك لا يرضى فما قنعت حتى اكثر من التضرع الي

وظلت تكلمهُ باسمة حزينة وكل الابصار عليها مفتونة بهذين الشابين الغريبي الجمال واللطف حتى اتعبها الجمهور بتكرار دعوات الرقص والناس تصفق لهما استحسانًا

وبعد ساعات خرج الامير وابنهُ والفتاة

الفصل الرابع والعشرون

ولديمير

تقسم بطرسبرج الى ثلاثة احيآء عظيمة حي الحكومة وكل رجال السياسة وحي القواد والابطال البحرية والبرية ثم حي الاشراف وسائر الناس وفي هذا الحي كان صرح الامير اوبيروف صرح شاهق باذخ مفروش على الزيّ القديم من كل ما يعتبره عصره ولا يستعملهُ يدل على ما كان عليهِ اجداده من الغنى الذي اضاعه هو على المسرات والاهوآء الصبوية وكان الامير ولديمير ولدهُ جميلاً ذا شعر اجعد اسود تلوح على وجهه دلائل الشجاعة

والعزيمة وفي عينيهِ السوداوين اشارة انفة وانكسار قلب يمتزجان امتزاجًا عجيبًا على انهُ عشق مرتا ولم يرضَ بغيرها مع ان اباه لطمعه اعدّ لهُ فتاة من غنيات بطرسبرج يبلغ مقدار مهرها مليونين فرنكًا ولكنها قبيحة الخلقة صفرآ الوجه فلم يدعها ولديمير للزفن معهُ مرة في المرقص ولم يعبأْ لكلام ابيه في شانها فحزن ابوه وخاف ان يسبق اليهاغير ابنه وعند رجوعهم من المرقص استدعى ولديمير فوبخه

— انك قد مثلت بهيئة بهية امس اذ تصرفت كتلميذ خرج من المدرسة حديثًا تلعب مع رفيقتك في الرضاع غير مفتكر بسواها فاعلم ياولدي ان العالم يقتضي الاستنسارة بنواميسهِ بلا اخلال والّا تنكر الهيئة من يتجاوز الحدود المرسومة والبنود المعلومة اظن انك كما ذكر الراوي عن المتحابين الذين اختليا في احد السهول بل انت امير بين اناس مناظرين ذوي فضول كل عين منهم ترقبك ادق المراقبة ولعلهم هزئوا منك هزءًا

فلما فرغ ابوه من وعظهِ رفع جبهتهُ المحنيّة وقال بصوت لطيف

— يا ابي اعدك باني لا اذهب الى مجتمع حتى انعلم ان استسير بكل لياقة فلا يكن لك بال

وودع اباه باشارة احترام براسهِ ثم خرج مبقيًا اباه يعمل في تفسير جواب ابنه اما ولديمير فجاز منتدى الدار ووجد فيهِ مرتا منتظرة لهُ وذهبا كلاهما يقبلان يدي جوليا قبل النوم

وان ولديمير احب مرتا منذ صباه اشد الحب ولم يلتفت الى غيرها بحيث كلما ذكرت غادة حسناء ذكر حبيبتهُ وكلما رأى فتاة جميلة لم يرَها كبير امر نسبةً الى رفيقتهِ وقد ظن ان حياته التي قضاها بصداقتها يتممها بزفافهِ على مرتا التي اوهمتهُ ان السعادة بقربها وحديثها ودماثة طباعها غير انهُ شعر بمعاكسة ابيهِ فتقلقت نفسهُ وخاف ان يصر ابوه على ممانعتهِ فيلجى ولديمير الى الهرب حتى تمكنهُ الايام من التي لا يريد غيرها حليلة

الفصل الخامس والعشرون

بين الرجل وامراته

طالما بقيت جوليا في بطرسبرج على جمالها الذي فتن الامير عاشت عيشة راضية حاكمة بامرها ولكنها بعد ما مسحتها الايام بالاصفرار واحالت لون شعرها الذهبي الى بياض الهرم تقلبت عليها الاحوال وعذبها الامير او يبروف على العار الذي الحقت بهِ لانهُ قبلها عروساً لهُ ومنذ انت بطرسبرج لم يخرج بها الى مجتمع حافل خجلا بها وانها لازمت بيتها فسعدت فيهِ حيناً ولما طالت الايام اصبحت اشقى من السبع المضيق عليهِ ولكنها في هذه الحالة صرفت اهتمامها الى ولديها ورات بسرور لا يوصف انهما متحابان ونسيت طويل احزانها والآمها كانها تذوق هي ثمرة حبهما البين الذي لم يخفياه قط ولعلها لم يعلما بهِ وفي بعض الاحيان كانت جوليا تفكر بتزويج مرتا لابنها و بذلك تتم سعادتها اما زوجها فانهُ لم يعتبر الجمال والصوت بل المال وفضل ان يقرن ابنهُ بالمال عوضاً عن امرأة محبة طاهرة يسعد واياها

وقد قال لها ذات يوم ليطلعها على اميالهِ لا ليستشيرها

— يا جوليا اريد ان ازوج ولديمير

— لكنهُ حدث السن

— انهُ قد تغير منذ شهر تغيراً مفزعاً

— ما اراه مريضاً ولكن من يعلم

— اذا لم نعلم الامهات ما يصيب اولادهن فلاباء يعلمون

— لا اعتراض لي على ما تريد

ولا عجب من انضاع جوليا فان صولة المرأة تقوم بقيام جمالها والاّ فتسقط

— ولكن على من بزف ولديمير

— اود لو يتزوج بالسيدة سليكه ابنة الكونتة باسيلي فهي غنية جدًا

— بسليكة تلك القبيحة الرقيعه الشنيعة

— الجمال يمرّ كما تعلمين

فاستاءت جوليا من هذه الكلمة الجارحة لها

— والمال يمر اسرع ياسيدي الامير كما تعلم

وهذا الجواب اثر كثيرًا بالامير لانهُ ذكرهُ بسيء ماضيه

— لا يرتكب ولديمير ذنب ابيهِ ولا يتزوج بتزويقة يذهب لونها بعد يومين بل فتاة شريفة غنية معروفة الحسب والنسب

فتنهدت جُوليا من قلب احر وهطلت دموعها على خديها لا من كيد ولكن اشفاقًا على مرتا

— ومرتا ماذا يكون من امرها الم تقل انك تزوجها

— اني لم اقصر في خدمتها بوجه من الوجوه اقرأْتها العلم على اكرم الاساتذة ورأَيت بها ميلاً الى الغنى والموسيقى فاتيتها بافضل موسيقي في بلادنا حتى فتنت بترتيلها كل الحضور فلا يصعب ان يصيبها عروس يحبها تسعد معهُ — ومع ذلك اعدك اني لا اهملها قط واقدمها للناس ساعيًا لها بمستقبل جميل

— ولكن ولديمير يشقي

— انا اسعد منهُ بعدم اصغائي الآن الى افكاري وكيف كان الحال تدبيري لهُ افضل من كل تدبير لان الخبرة ربتني وادبتني فان استفدت منها لاصلاح حال ابني واثبات سعده على أُسس قوية فهل علي ذنب في ذلك

فحنت جوليا رأْسها واخذت تتامل تاملا محزنا وترثي لمرتا المسكينة التي بدأَ الدهر ان يتابعها بالشقاء والآلام كما تابع كرمانه امها في

الفصل السادس والعشرون

مرتا

دعاها وقد قرب عيد من الاعياد الكبار احد الكهنة لترتل في كنيسة الكاثوليك ببطرسبرج وبعد الجهد قبلت دعوته واهتمت لذلك كثيرًا فاستدعت باستاذها

وجعلت تردد على مسامعهِ الاناشيد التي عزمت على ترتيلها ففتنته برقة صوتها وقوة حنوها وطأ منها انها تنجح اتمّ النجاح وان مرتا منذ بدأت بعلم الموسيقى اجتهدت في اتقانهِ اجتهاد فتاة مولعة بهِ وما زالت تدرس وتراجع وتمرّن صوتها حتى بلغت باقرب وقت اسمى درجة بالغنى ولا سيما لعلمها ان تلك الصنعة تبلغها ما تروم من صفاء العيش وحسن المستقبل وان الامير شجعها على اتقان فنها وفي نفسه ان تصبح مغنية فتبعد عن بطرسبرج و ينقطع رجا ابنه فيسلوها ولم يتنبه او بيروف لصفاتها الجميلة ومناقبها الجليلة ومعارفها الجزيلة لان دراهم سليكة اعمتهُ عنها

و بعد ايام اقبلت عليهِ مرتا فحيتهُ بوقار ولطف

ياسيدي قد احسنت الي كثيرا ولست انكر فضلك علي وما اقدر على اظهار معرفتي لجميلك الا بان اسالك نعمةً جديدةً تكلل سابقات احساناتك الي وهي أن ابتعد عن بطرسبرج

ـ اتريدين ان تبتعدي عنا

— لا اريد ولكنني مجبرة لذلك

— وماذا تصنعين

فهطلت دمعة اسف من عينيها حرة كالنار

— اغني

ـ ابن ومن يقدمك للجمهور

— قد املت بك لانك تعرف اناسا كثيرين فهل تكون عند املي

— احسنتِ ياولدي انا دائمًا مستعد لانفعك في كل ظرف من الظروف

— قد علمت ان في المدينة مغنيًا شهيرا ايطاليانيا وانت تعرفه فهل تقدر ان ترسله الى الكنيسة التي ارتل بها والله يصنع ما يخفى على الحدق

— اتكلي علي ياولدي

وظهرت على وجه الامير دلائل سرور لم تخفَ على الفتاة لانه يتخلص منها ويخلص ابنه

ـ اشكرك ياسيدي كل الشكر و يسرني جدًا ان يبقى هذا الكلام بيننا فقط

– يكون كما تحبين

فانحنت مرتا وخرجت بكل لباقة واختلت في غرفتها طول النهار مدعية انها منحرفة المزاج واخذت تفتكر افكارًا مهمة في حالها مع ولديير الذي كان يحبها الى الجنون اما هي فلم تتجلد على مفارقتهِ الا لان الامير اباه احسن اليها كثيرًا فارادت ان تضحي سعادتها لسعادته ظانة ان الغنى يعزيها عازمة ان تعيش على الملاعب كما في الاديرة طاهرةً نقيّة ولا تتزوج الا بالتصور او التذكار شاغلة نفسها ما قدرت في اكتساب المجد وقطف الغار من حديقة الشرق بيد التمرين والجهد والاصرار

الفصل السابع والعشرون

هنيهة سعادة

بعد ان مرّنت صوتها على كل ما يجب ان ترتلهُ وشهد لها استاذها برنيني انها احسنت كثيرًا واوصاها ان تتشجع وان لا تظهر الخوف جثت على قدميها وصلت الى الله من حرارة قلب وطلبت اليهِ ان يعينها في ذلك الموقف المتوقع ان يكون اساس مستقبلها

وفي الغد افاقت من نومها فنمقت شعرها تنميقًا غير اصطناعي وارتدت بثوب اسود من الحرير يرسم قامتها احسن الرسم ونظرت في المرآة فرات ان سواد ثوبها يجمل شعرها الذهبي وعنقها الناصع كالعاج وضياء وجهها فالتفت بدثار اسود تخفي بهِ آيات حسنها لانها في جهالتها حسبت ان لا يجب عليها الا المجاهرة بصوتها واقبلت على جوليا منتظرة لها مع الامير ولديير وقالت لجوليا

— ما بال اعينك حمراء لماذا بكيتِ

— لا ياولدي اني قد حدث لي وجع راس موءلم هذا هو السبب

ثم تقدمت نحو ولديير

— اراكِ صفراء يامرتا وما الذي حملك على لبس السواد يوم العيد يقولون ان ذلك يتسجر الشقاء ولكنك اليوم اجمل من العادة بما لا يوصف

— لا تقل ذلك او اغير ثيابي

ولما قرعت الساعة السادسة اصفرت مرتا وخفق قلبها فقالت لجوليا

— يا صديقتي يا امي قبليني وشجعيني

— يا بنيتي العزيزة اعانك الله وباركك . وهطلت دموع جوليا كالمطر وحزن ولديير حزنًا ملأ نفسهُ

ولم يلبثوا ان ركبوا العجلة الى الكنيسة

وعند وصولهم صعدت مرتا بين صفوف المرتلات الى مركزها المعد لها وتواقعت كل الابصار عليها وكان المغني الايطالياني جالسًا قبالتها فبعد ان جثت وصلّت الى الله في قلبها احر الصلوة دعاها صوت الارغن فوقفت بكل هيبة واحترام ومشت والابصار مطوقتها وصعدت الى منبر الارغن ووجهها سابح في غبطة سموية وعينيها سائلتان من الرقة والوداعة ونسيت كل ما حولها من الناس وافتكرت بامها التي ما عرفتها كانها شفيعة بها الى الله واوقدت نارًا مقدسة في قلبها وجرت الشعلة من عينيها ورفعت صوتها بجلال وعبادة ومحبة

وبعد قليل من التقاطيع لم يتمالك المغني الايطالياني من ضبط حركات قلبهِ فقال

— هذه الفتاة جميلة للغاية ولها احسن صوت سمعتهُ في حياتي فكأنها القديسة سيسيليا نفسها

فقام ولديير ناهضًا ولكنهُ وقع على كرسيهِ من شدة الفرح الذي حصل لهُ وذرفت دموع لؤلئية من اعين جوليا ولولا الحرمة اللازمة للمكان المقدس لصفقت الناس اشد التصفيق كما لو كانوا بملعب

ومدة ما بقيت الحفلة اظهرت مرتا من الهمة وسعة الصدر ما دفع عنها كل الاعتراضات التي يمكن المغني ان يخطئها بها فقد ساعدت المرتلين ودربتهم واحيتهم باشاراتها مالئًا صوتها كل الكنيسة منشدة بكل سهولة لا ينقطع نفسها ولا يخامرها التعب وكلما طال عليها الوقت زادت نغمتها طلاوة وافادت واثرت جميع الحضور بما نورده من الالفاظ العذبة الواضحة وعند النهاية ذهب بها الامير لمقابلة سلياري المغني فلما اقبلت اندفع اليها بقوة عجيبة واخذ يدها ونسي انهُ اول مرة يراها فقال بدون تكلف

— لو كانت ملائكة السماء جميلات وحسنات الصوت مثلك يا ولدي

فانا قد تهيأت لترك هذه الدنيا لاتمتع بابدية السرور والانبساط والغبطة التي اوحيتها لي اليوم . قد سمعت اعظم مغنيات العالم وهن دونك بمراتب وانك ستُسمعين العالم مالم يسمعهُ قط وتدخلين في قلبهِ لذة ما عرفها من قبل . فحنت مرنا راسها لهذا المديح العظيم شكرًا لهُ ثم التفتت الى الامير كانها تقول لهُ

— ان ساعة السعادة هذه تفدي الضحية التي سَاقدمها

الفصل الثامن والعشرون

المنشد سلياري

وكان سلياري في سن الستين قضى حياتهُ في اتقان ملعبهِ المعروف بملعب بركولا في مدينة فلورنسا مسقط راسهِ حتى اشتهر في ايطاليا كلها واصبح ملعبه محط سرور كل اهل مدينته والغرباء الذين فيها وقد كان في وسعهِ ان يعتزل الاعمال و يعيش متمتعًا بما كسب في حياتهِ من الاموال ولكن سعادتهُ وذوقه وسروره حصرت في ادارة ملعبه واشغال الناس بالتكلم عنهُ

ومنذ سمع تلك الفتاة وراى جمالها البارع لم يعد يفتكر الا فيها لفرط ما تحرك وابتهج امس وراي ان مرنا عجيبة لاشبيه لها في الدنيا وفرح بظفره بها لان الامير وعده بذلك وعزم على التغدي عنده مع مرنا لتُسن الشروط اللازمة للصك وما زال سلياري ينتظرها بفروغ صبر بعد ان كتب الشروط بيده حتى لا يكون عليها الا ان توقع[1] واعد لها غداء انيقًا من الذ المطاعم وقد فات الظهر فلم يأتوا خلافًا لما وعد الامير اذ سمع المنشد صوت اقدام فاسرع للاستقبال ولما ابصر مرنا قال

— اهلاً بالهة الغناء العجيبة بالدرة اليتيمة الثمينة فقال الامير

---

١ تختم

—قد ابطانا بالمجيء ولكن اقتضت الواسطة ان نحضر على الطعام في البيت لئلا ينتبه الينا

— قد اتيتم وكفى فهلم الى المائدة فقالت مرتا اننا قد تغدينا فاشكرك ياسيدي

ـ اذن تبدأ ين ولا تكونين بربرية بحيث لا تجالسيني على الطعام فجلست مرتا بينهُ و بين الامير وجعل المنشد يتامل جمالها وهو ياكل بكل تدقيق وانبساط وقال في نفسهِ

— في سن العشرين سنة لها صحة جيدة و بياض ناصع وشعر من ذهب وعينا اسبانيولية وصوت ملاك

ولما فرغوا من الطعام نهضوا الى ردهة الاستقبال وهناك اراد المنشد ان يسمع صوت مرتا في الاغاني المدنية فسالها

— على من تعلمت الموسيقى يامرتا

— على المنشد الشهير برتيني

— ما شهادتك بهِ

— فتكلمت عنهُ باطراء وشكرتهُ مدعية انهُ هو الذي اودع في صوتها سر الايقاع ورفعها الى درجة مهمة في الترتيل

—باي لغة علمك الغناء

— بالافرنسية والروسية والايطاليانية

ـ هذا كنز ثمين جداً ولكن هل تنشدين على الملعب كما في الكنيسة

— ما اظن اني اجد المؤثرات نفسها واخاف ان تقل بذلك قيمة صوتي

ـ هذا الجواب طمانينة لي ولكني لا اشك ان وجود جمهور طروب يوحي اليك كمال الغناء بشرط ان تتنازلي لمدارسة بعض الاشياء الجديدة التي يعطش اليها الجمهور فما ترين

— ادرس لا ريب وان اكن لم اقل من التمرن في هذا النوع من

الانشاد ولا اظن اني ابلغ فيهِ مبلغ الشاديات الشهيرات التي اعنايتم بمكم على سماعها

فاجاب الامير

— ان مرتا وديعة جدًا فاسالها قطعة تنشدها

فتم مرام سلياري واخرج للحال من صندوقة جميلة قطعة موسيقية تدعى «الاثيره» (لتفضيلها عند الفرنسويين على سائر الاناشيد) وقال

— اتعرفين هذه

— اعرف منها اناشيد (الانور)

— اتبعك في غنائها

فاسمعتهُ المشهد الرابع من الفصل الثالث وشدت بما هو احن من نواح الحمام وارق من نغمة العصفور واركز من غناء المنشدات الشهيرات بحيث كاد المنشد يغشى عليهِ سرورًا وعجبًا وقال

— هذا لاشك فائق الطبيعة

وعندما فرغ من مدبحها وانفد كل آيات العجب والسرور اسرع الى منضدة من خشب الورد فاخرج منها ورقة وقدمها لها

— اسالك ان توقعي على هذا الصك

ولما قرانهُ مرتا رجعت الى الوراء وقالت

- لا يكون ابدًا اني لا ارضى بشروط سامية كهذه قبل ان اجاهر بصوتي

— وقال الامير وقد قرأ الصك

— ان هذا لا يعطى لاشهر مغنيات الدنيا

— انها تكون اشهر الشاديات

— قد اكثرت ياسيدي من الجودة والكرم ولكنني لا ارضي بهما قبل ان ابث معرفتي امام الجمهور ولعلي اخطىء او يبحّ صوتي فيعود ذلك بالخيبة علي

فجرها الى امام المرآة وقال

— أأنت تعودين بالخيبة ولك جمال ملاك انظري في المرآة واذا كنت عجيبة بهذا الثوب الساذج فكيف بك وقد لبست اجمل الملابس وتكللت باثمن الحلى . ان جمالك يشفع بصوتك اذا عجزت اول مرة

— ومع ذلك كله لا اقدر ان اوقّع على الصك

— اذن هذا القلم فاحذ في ما شئت واكتبي ما استنسبت فوق طبعة ختمي

فاخذت القلم بيد مرتجفة وكتبت

« ان مرنا دسماري ترضى بالشروط التي يستليقها لها السيد سلياري مدير ملعب البركولا بعد ابتدائها الذي يكون الشهر القادم في فلورنسا »

ووقعت بسرعة على الورقة ثم سلمتها الى سلياري فقال

— انك يامرنا اغرب واعجب فتاة في الدنيا واني اكون لكِ صديقًا او شفيعًا او ابًا . فهزت يده مرنا بانعطاف مخلص وقالت

— تكون لي ابًا

— نعم ابا ياولدي العزيزة

والتفتت الى الامير باعينها السوداء كانها تشكوه اليه او تبتهل اليه في اخلاصها من ارتباك اصابها فحزن قلب الامير وظهرت امارات الاسف على وجهه ونهض يودع سلياري فقال هذا

— اذن بعد يومين مساء انتظرك بالعجلة على الباب فتأتين اليّ سرًّا واطير بك الى سماء احر من سماء روسيا — فعليك السلام الى نهار الخميس مساء

وشيع سلياري الامير والفتاة الى اول الدرج ونزل الامير وهو يقول في ضميره

— لمَ الدهر حرم هذه الفتاة الغني مع هذه الصفات التي تميزها عن سائر البنات ام لمَ الايام علقت قلب ابني بقلبها وجعلتهُ لا يهنا الا بوصالها وقربها وتنهد تنهدة اسف اجابت اليها مرتا بزفرة شكوى ليست باقل معنى ولا اسفا

الفصل التاسع والعشرون

الاستشعار

بينما مرتا تسرّ لانتصارها كانت جوليا وولديمير في ردهة الدار مشتغلين كل في امر صامتين يحلق الهم فوق رأسيهما و بينهما كلب يلاطفهما و يحاول ان يسليهما واذ لم يجد لذاك سبيلاً جلس على اقدام ولديمير وامتلأت عيناه من شعاع محزن كانهُ يقاسمهما اضطراب الافكار ولما قرعت الساعة نصفًا بعد الخمسة تنبّه ولديمير فاسرع الى جعل الجرس ليناديَ احد الخدم فانتبهت جوليا

— لمَ يابني تقرع الجرس

— استدعي الخادم لياتينا بنور الا ترين ان الغرفة اظلمت

ثم ظهر الخادم ليتمم اوامر سيده اما ولديمير فكان خائفًا من امر لا يعلمهُ وطال عليهِ غياب مرتا فقال لامهِ

— اين مرتا يا اماه

فتوقفت جوليا عن الجواب هنيهة وقال الخادم وهو خارج

— اظنها في غرفتها

وعندما تلألأ النور في الغرفة نظرت جوليا الى ابنها فرأتهُ مصفرًّا منحط القوى كمن اصابهُ دوار شديد

— مالك ياولدي حتى اراك متعبًا جدًّا

ـ ستقولين اني احمق ولكن اخشى من خطر محدق ببيتنا وانني قلق على نفسي لاني احس بقرب دولة في حياتي من الدولات الكبار المهات ومن يعلم كيف ذلك الشعر اتاني بلا سبب

فرأته جوليا وفزعت من استشعاره

ـ لكن اظنك مريضاً يا ولديمير ولا تريد ان يراك طبيب

فقبل ولديمير يد امهِ ولم يجب وقالت جوليا

— لست غير قلق ولكن اي منا يخدمهُ المقدور وليس السعد عند منالنا بحيث يلتقط كلما تمد لهُ اليد وليس الحب كافياً لقلبك الشاب وقد فهمت ذلك وانا أتألم من جرائهِ كما تتألم

وانسع صدر جوليا لكثرة الزفرات وتساقطت الدموع من عينيها فقال ولديمير

— واحبيبتاه وا اماه انك وحدك تتعذبين بلا شكوى

وسمعت جلبة اقدام وفورة فرجع الولد وامه الى ركنتيهما الاولى ودخل الامير صامتاً وانضغط قلبهُ لذلك المشهد المحزن فتقدم نحو الموقدة وجلس ثم هب لاستقباله الكلب من جهة اخرى فغضب الامير جداً

— يا سيدتنا جوليا ارى ان هذا الكلب قد سكن منتدى الدار فنعم الشريف . فنهض ولديمير نهضة حنق واشار الى الكلب فتبعهُ الى الخارج واحدق الامير بابنهِ وهو يتأفف غضباً

— لا نقدر ان نقول شيئاً امامهُ لئلا يبتئس

ثم اخذ يتمشى في الردهة طولاً الى عرض و بعد عشر دقائق سالتهُ جوليا

— الى اين خرجت برتا

ـ من قال لكِ ذلك

ـ اعرفهُ

ـ ان اعرفهٔ ليس بجواب بل هو جواب امرأة ولكن ايعرف ذلك ولديير

ـ لا

ـ اذن محظور عليكِ ان تخبر به

ـ لماذا

ـ لذلك

ثم قرع الباب خادم يستدعيها للطعام

فاسرع الامير بالخروج ليتخلص من اسئلة جديدة واجتمع الكل على المائدة غير ان مرتا تأخرت دقائق ثم دخلت وعلى وجهها دلائل حاستين متضادتين لخوفها ان يكشف امرها و يعرف سرها اما الامير فاكل بقبول عجيب لان الطعام كان مسرته ولذته وتمام راحته واحست جوليا ان قلبها منكسر ولكنها اجتهدت في اخفاء كمدها وانقضى وقت العشاء كالعادة فتكلموا عن مواضيع شتى وضحكوا وهزلوا ليتسلى كل عن همه و بعد الطعام ذهب الامير الى الملعب واجتمع ولديير وامهٔ ومرتا في غرفة فاخذت مرتا ترتل بصوتها الشجي الملكي وجلس ولديير قريبًا منها يتأملها في ملبسها وحركاتها بعين فتنة و يشتم عبير الطيب الفائح من ثيابها ويسمع الموسيقى خارجًا عن حواسهِ مستغرقًا في فكر واحد مالئ قلبهٔ (احبها) بتمني قرب الساعة التي يتصل بها اتصالاً تامًا و ينجو من الخوف عليها و بعد السهر الطويل ودع امه وقبل مرتا قبلة محرقة اما مرتا فلم تنم الا غرارا طول ذلك الليل فاكرة في حياتها الماضية حائرة في نفسها

ـ اذا كان الله خلقني وحيدة في الدنيا ومنحني فنا جميلاً وعوض عليّ باسرة اخرى بعد ما سلبني اسرتي ثم سمح لسوء الطالع ان يحرمني عائلتي الثانية فليس ذلك بلا مقاصد اعطاني الحرية المطلقة ولكنهٔ يحرم عليّ الكبرياء العمياء والشهوات الباطلة والمسرات المؤذية واذا كان سبحانه لم

بدعُني الى خدمتهِ الخصيصة بان اكون راهبة فيجب عليَّ ان اقر بعدم فهمي
بيانه السامية ولعل انعزالي عن الدنيا كان سبباً لانقطاع النعمة التي وهبني
اياها عن العالم ولكن مهنتي صعبة فعليَّ ان اعمل بها بشرف ولا اتنازل
كسائر النساء الى مطامع دنيئة ولا استجلب العواصف لاتلاف راحتي بلا
سبب فلا يكن لي لا حب ولا رجل ولا عاشق ولا عائلة بل اسلم نفسي الى
حسن القيام بمهنتي وهي حبي ورجلي وعاشقي وحياتي . واطبقت جفون الفتاة
فاستلقت باسمة وهي تقول

— نعم العزلة والحرية والتصور والمجد ونامت متعزية متشددة القلب .

وفي الغد افاقت مرتا وبدأت بالاستعداد للسفر تاركة كلما منحها الامير
ثم فتحت صندوقة من العاج فيها كنزها الوحيد قطعة الالماس التي اهديت
من ابيها الى امها وضفيرة من شعر كرمانة الحريري الاشقر قبلتها باحترام
وشوق وغلاف فيهِ اوراق مصارف تبلغ سنين الف فرنك وقد اعارت من
قبل ذلك اليوم الى الامير اربعين الف فرنك احتاج اليها لدفع دين
اصابهُ بالقمار وكان من قوله لها

— يا مرتا عليَّ ان ادفع اربعين الف فرنك في اثناء هذا النهار واذ
لم يتيسر لي ذلك ينبغي ان ابيع شيئاً من ارزاقي وهذا يؤذي فاليك
شكوى همي

—إِئذن لي يا سيدي ان اضع جزءا من مالي بين يديك

واذ رأتهُ تمنع مظهراً انهُ لا يستحل قبول ما اعطتهُ الفتاة قالت لهُ بحدة

— اذا رفضت تعرضني الى الخجل من نفسي بكوني عشت الى هذ
السن بنعمتك

فاستلم الامير الدراهم ولا سيما لان ذلك كان غرضهُ من مكالمتها
بهذا الشان

ثم تنهدت مرتا عديداً لما افاق ذلك المشهد فيها من الانعطاف على

امها التي رأت شعرها وعلى ابيها الذي ابصرت خطهُ على الغلاف (الى ابنتي) وتاريخ مصائب وافراح امها (٣٢ اذار) واقفلت الصندوقة وهي تقول

— واحبيتي جوليا واحبيبي ولديمير كم يسوءهما خبر سفري بغتة يا لها من لطمة غير منتظرة ولكن لا يجب اخبارهما اذ لا يدعاني اسافر وقد عاهدت سلياري فلا اخل ولو بقيت اي جحيم هنالي قد يطردني الامير اذا انقطع رجاؤُهُ من توجيهي على حال

وان قلبي لا يحب الامير ولعلي بذلك متكبرة رديئة كافرة بالجميل لانهُ هو الذي رباني واقام لي معلمين واليهِ مرجع نجاحي في فن الموسيقى ورغما عليَّ لا اقدر ان احبهُ ولا آسف عليهِ

وبعد ما رتبت كل احوالها الصغيرة جلست على تُكأة وبقيت سادلة يديها مسترخية الراس ثابتة العيون لاستغراقها بالافكار طويلاً اذ دخلت عليها جوليا وجلست بالقرب منها

— يا مرتا تخفين شيئًا عليَّ

والقت عليها نظرًا فنكست مرتا جبينها لئلا يظهر اضطرابها

— انا لا اخفي شيئًا

— الم اركِ امس خارجة سرًّا مع الامير على غير معتادك وذهبتِ بلا اعلامي

وصعب على مرتا ان تكذب فصبرت هنيهة ثم قالت

— نعم خرجت امس . . . وقد سمعت منذ مدة كلامًا دار بينك وبين الامير لانهُ لفظ اسمي وانا مارة امام الغرفة فاصغيت لاتحقق ما كنت شاكة بهِ لاني رأيت وجودي عندكم اصبح حملة على الامير وكفاني

— تلك عبارة غضب مرت

— لا تبتئسي من اساتي وفضولي لاستماعي حديثكما ولكني اردت ان اعرف مركزي لاحسن التصرف في المستقبل والتقطت اذني كلمات مزقت

قلبي كالسهام وقد قال (ارضي بان تبقى مرتا عندي الى سن رشادها ثم اجرب بان اجد لها عروساً لتوطيد مستقبلها وما ذلك سهل لان اللقيطات لا يدخلن بسهولة في الاسر الشريفة) وقد جرحتني هذه الكلمات وفتحت عينيَّ ورأيت انهُ من شرفي والواجب عليَّ ان اعزم على تدبير ولعلهُ تدبير خطير بحيث يكون كل شيء بلا قلق

— ما ذلك التدبير

— اني ادعكم

— أأنت تسافرين

— بعد شهر بن ابلغ سن الرشاد واريد سلامتكم وسعادتكم جميعاً

— والى ابن تذهبين يا ولدي الشقية

— لا تحزني ان لي رتبة عالية واكون رئيسة مرتلات و لي مداخيل عظيمة وقد وقعت على الصك وقضي الامر

— قضي الامر ومن كتبك الصك وكيف اوصلت الى ذلك

— ان الامير عرفني بمدبر ملعب وقدمني لهُ كما سالتهُ انا

واغتاظت جوليا من خيانة زوجها وسوء تصرفاته التي طال عهدها عليها

— يا للردآءة ما اجهرها

— مالك حزينة تفتكرين من هنا الى ذلك الحين يصنع الله عجائب كثيرة

فجعلت جوليا تفتكر في كرمانه حبيبتها وفي ابنة كرمانه وابنها هي واختلطت هذه الصور في قلبها حتى احترق وخشيت ان ينشف كالزهرة التي قطعت واخذت تخفف لوعتها بالبكاء والتنهدات التي ملأت الغرفة وكادت ترددها الاحجار فقامت مرتا وجثت على قدميها واخذت تبكي اكثر منها حتى كادتا تهلكان في ذلك المضيق ثم وقفت مرتا وارادت ان

تتكلم لكن جوليا منعتها

— كل ما تقولين لي يحزنني الا تعلقك بي ومحبتك لي ولا اكثر واني افتكر كيف اصدعني هذه الضربة التي من اشد ما اصابني في حياتي منذ سنين و بينما جوليا تفتكر محمرة الاعين نظرت اليها مرتا فحزنت وقالت

— دعيني اريح راسي على صدرك واحييتاه لعلى استفيد صبرًا واهملي عبراتك على جبيني وليسقط على هذا الندي كبركات من العرش تجري

فقبلتها جوليا قبلا عديدة

— يابنيتي سمع الله صلاتي ليته يحميك من كل العوارض و يبقيك سالمة و يجازيك على اخلاص حبكِ لي

— أو من ان الله يستجيب دعآء الصديقين

ثم تنهدت جوليا وقالت

— و يلاه من الاستشعار. لان الاستشعار استولى على ابنها قبل بليلة كما عرفنا واغرقه في بحار فسيحات من الاسى

——◇◇◇——

الفصل الثلاثون

الوداع

و بعد هنيهة دخل ولديمير الى غرفة مرتا فوجدها مشغولةً في ترتيب باقة زهر رائقة كمعتادها كأنها لم يحدث لها قلق لفرط ما جهدت نفسها في ضغط عواطفها

— ما اجمل هذه الباقة وما ارق تنسيق ازهارها كل ما تضعين يدك عليهِ يستعير جمالاً

فرفعت عينيها اليهِ وقالت

— أتظن ما تدعي

— بل اظن انك بكيت

— نعم ولكن للتسلية

— كيف ذلك يامرتا

— عرضت لي افكار جنون

— ما معنى افكار جنون

— اوهام واضغاث احلام

— قد يؤلم ذلك ولكن ما اجملك يامرتا

— تتكلم اليوم بلا قياس اخاف ان يكون شيء اختلَّ هنا

ووضعت اصبعها على جبهته فقال ولديمير

— انما هنا يوجد سرٌّ عظيم اعز والذ شيء في حياتي

فاثرت فيها جدًّا هذه العبارة التي نطق بها ولديمير من صميم قلبهِ

— اعندك سر تخفيهِ عني

ما هو هذا

— قصة طويلة تخصني وحدي

فدعتهُ الى الجلوس على كرسي قريبًا منها

— قد ظننت ياولديمير ان لا يخفاني شيء من امورك بعد ما عشنا طويلاً معًا

— لا يامرتا لاتعلمين افراحي التي حصدتها صامتًا وآمالي البهجة وايامي الحزينة الملأى من الاضطراب ولا بدَّ يومًا ان ابوح لك بسريرتي واطلعك على حقيقة حالي

فسقط عن وجه مرتا الستار الذي ضربتهُ عليهِ لتخفي حركات قلبها وافتكرت انها بعد ساعات تبتعد عن هذا الاخ العزيز ورفيق الصبا وتسحق ذلك الفؤاد المملوء من حبها وتقطع تلك الآمال المعلقة بها وانها خائنة للهجر من تحبهم ويحبونها من اجل كبريائها ثم حنت رأسها على

كتف ولديير وقبلتهُ قبلة طاهرة اخوية قائلة

— يا أخي العزيز ان سيد الامم واله الدنيا يجربنا غالبًا لنذوق بلذةِ الجزاءِ الذي لنا عندهُ

—يا شقيقتي اني لا اطلب من السماءِ الاَّ شيئًا واحدًا ان اعيش قريبًا منكِ ابدًا

فاصفرت مرتا لهذا الدعاءِ القلبي الصبابي وقبل ولديير جبهتها الناصعة وابقى عليها دمعة انشفتها حرارة رأسها واحست بموضعها كانهُ لذعة جمرة لان تلك القبلة في تلك الساعة الحرجة كانت قبلة الوداع

وجعلت مرتا كلما تقدم الليل وادبر النهار تحسُّ بتشنج اعصاب واختباط قلب صعب عليها جدًّا ان تخفيها وان تتجلد على الهزات القوية والحزن القاتل الذي شمل قلبها وعند العشاءِ حاولت ان تاكل ولكنها احست بكل لقمة اشأم على صدرها من لطمة. ثم امتقع وجهها وانضغطت اعصابها واخذتها رجفة مرهبة

فقامت بها جوليا الى غرفتها ظانَّة انها مريضة واضطرتها ان تستلقي على فراشها لتستريح وجلست نحوًا من ثلاثة ارباع الساعة وهي ساهرة عليها تارةً تجسُّ جبينها وطورًا تسمع تنفسها حتى ظنَّت انها نامت فقبلتها ولكن قبلة الوداع وخرجت وعند ذلك نهضت مرتا واذ احست بجوليا انها ابعدت لبست كساءً اسود من صوف وكمّة سفر ولفت شعرها كما اقتضى ضيق المقام ثم فتحت الباب وحملت صندوقها الصغير وخرجت على رأس قدميها الى ان بلغت اوَّل الدرج فوجدت الامير بانتظارها واذ ذاك اشار اليها ان تسرع لخوفهِ ان يعود احد الخدم من حيث ارسلهم ونزل امامها كأنهُ قاضٍ لا يرحم حتى قاربت الخروج من فناءِ الدار فقفز الكلب اليها يلاطفها وكأنهُ يودعها فقبلت ذلك الحيوان القديم واذا بالامير قد رفسهُ برجلهِ رفسة كادت تقتلهُ فذهب وهو ينبح حزينًا كئيبًا. اما مرتا

فالتفتت الى القصر آخر مرَّة وتنهَّدت تنهُّدًا عظيماً وحيَّت آخر تحيَّة ذلك البيت الذي شبَّت به وشهدت جدرانهُ مسرَّاتها واحزانها وردَّدت نغمات افراحها واصوات اشجانها

ولما خرجت من الباب الكبير رأت عجلة ينتظرها بها سلياري فتقدم اليها الامير بكل احترامٍ واسف وهزَّ يدها

— صحبتكِ السلامة يا ولدي ووفقكِ الله ما عليَّ ان اوصيكِ بحسن السلوك فانكِ بحمد الله نشأْة صالحة

سامحيني واغفري لي الالم الذي سببتهُ لكِ واذكري ان ذلك لسعادة اخيكِ ولديير

— استودعك الله يا سيدي واشكرك على النعم التي سكبتها عليَّ واذا خطرتُ ببالك يومًا فلا تنسأْ من ذكري

وانطلقت العجلة تنهب بها الخيلُ الارضَ نهبًا واخذ سلياري يعزي الفتاة و يلطف نيرانها ويحدثها بالمزح واللطف لتتسلَّى وكان من قولهِ لها

— تشجعي ياولدي واصبري فان لكِ مني صديقًا مخلصًا غيورًا

الفصل الحادي والثلاثون

سافرت

قامت جوليا وقد قارب نصف الليل لتنام بعد ما ودعها ولديير فارادت ان تمرَّ على مرتا لتنظر كيف حالها فوجدت الباب مغلقًا لا كما تركتهُ ودخلت بكل سكينة قاصدة فراش مرتا فلما دنت منهُ لم تجد عليه الا طبعة جسمها فنظرت في الزوايا ولم تجدها وجالت في كل القصر تستدعيها بصوت محزن ولم يجبها الاَّ الصدى واذ سمع ولديير صوت امهِ فتح باب

غرفته ونزل مسرعًا الى غرفة مرتا فتلقتهُ امهُ بهذه الكلمة والدموع في عينيها

— قد سافرت

— امرتا سافرت

— كان يجب ان اشك في ذلك من اوّل السهرة لما رايت من الاشائر ولما قالت لي في النهار

— لا يمكن ان تسافر . وعدا الى الغرفة كالمجنون واحدق بها من كل الجهات غير قادر ان يصدق ذلك

— قلت لكَ انها سافرت

وجلست جوليا معهُ تخبره بما قالت لها مرتا في النهار من آمالها واميالها وكيدها من الامير لكلماتهِ القاسية البربرية والواسطة التي بذلها لتذهب مع المنشد الشهير وعند هذه الكلمة مرَّ براس ولديمير فكرٌ فقال

— لعلها ذهبت مع ابي لتتفق نهائيًا مع هذا المنشد اللعين

ثم قرع الجرس وامر الخادم ان يذهب الى النزْل او الملعب لينظر اذا كان الامير هناك وحدهُ ام مع غيره و بعد دقائق قضيت بالصمت يخاف ولديمير وامهُ اذا تحركا ان تتقصف قصبة الامل التي بقيت وحدها قائمه في بستان الحب رجع الخادم واخبر ان الامير دخل الساعة التاسعة الى الملعب وهو وحده لا رفيق لهُ في موضعهِ وعند ذلك اعيت همة ولديمير التي شددها الشك قليلاً ووهنت عزيمتهُ وانطرح على فراش مرتا يبكي امرَّ البكاء و يشكو احرَّ الاشتكاء وصبرت جوليا نفسها امام غم ابنها واقبلت عليهِ تزجرهُ وتعدهُ وتصبره بافصح العبارات واوضح الاشارات وهو لا يعي كلامها ولا ينتبه لها ولا يقول في خلال زفراتهِ المحرقة الاَّ « سافرت سافرت »

الفصل الثاني والثلاثون

لله كم يحبها

وبقي ولديمير ثلاثة ايام بعد غياب مرتا مختليًا في غرفتها كانهُ ناسك لا يراهُ ابوهُ ولا يسمع الا صوت اقدامه القوي في تخطره طولاً وعرضًا اما جوليا فقلما فارقتهُ لخوفها عليهِ من عارض مرض لما رأت من شدَّة يأسهِ وحزنهِ حتى انها اجتمعت بالامير ساعة فابتدرتهُ بهذا الكلام

— انت قاتلهُ اذا اصابهُ شيء

ومسحت دموعها الهاطلة فلم يجرأ الامير ان يتجاهل عن سفر مرتا ولا ان ينسب ذلك الى غيره لان نظرات جوليا كانت كنظرات الحاكم العدل على جانٍ اثيم

— العشق لا يقتل الرجال ياسيدة جوليا

— ويلاهُ مهما كان سببُ الشر اعلم انَّ ولديمير ينزع لاني رأيت على وجههِ دلائل مرض عضال يقلُّ منهُ الزوال

— اذن علينا بزيجته فان مسمارًا يطرد الآخر واكلمهُ عن ذلك

واستدعى ولديمير فاتى منحطَّ الهمة بهيئة سكينة وشجن

— انك ياولديمير مدعوٌّ غداً الى مرقص عند الكونتة باسيلي فاستعد ان تذهب لان الكونتة وانا نريد ان تتصل اسرتانا بعلاقة دم فتكون السيدة سليكة عروسًا لك

— لا اكتم عنك يا ابي اني ابغض هذه السيدة ولا اتزوج بها ابداً

— ليس للشبان فكر ثابت وهذه كلمة شاب في سن العشرين

— بل هي كلمة الامير اوبروف

فعجب ابوهُ لهذا الجواب المفعم وقلق قلقًا مفزعًا

— ستري اذا كنت تخطبها

—لا اظن ابي اوامي ياملان ان يزوجاني على الرغم مني · فقالت جوليا

—لا معاذ الله

—فاذن لتعتن جوليا اوليفه في تدبير ابنها لاني ياولديير لا يكون لك نصيب من عندي اذا لم تتزوج على مرامي

وهذا الخصام توالت عليه الايام حتى اصبح بيت او بيروف لا يعرف السلام الى ان دخلت جوليا ذات يوم على ولديير واعلمتهُ انها اقتبلت رسالة من مرتا فقراها بشوق

«تركتكم سرًّا اطاعة لواجب على نحوكم ولو ودعتكم لما كنت نجوت من بين يديكم · ولكن ابدا يكون لكم المحل الاول في قلبي ولا توصلني الوحشة وطول غيابي عنكم الى الكفر بالجميل فهل تشكون في اخلاصي وان سفري الصحية ثمينة قدمتها برهانًا على قيامي باداء معروفكم واحسانكم علي فيا لتقلب الزمان الذي لم يرد مني على حبي لكم الا هذا البرهان ولو علمتم ما اقتضى لي من الشجاعة الوحشية لادع ذلك المأوى حيث سعدت بقربكم كل السعادة مدة عشرين سنةً ولكن لا باس اذا كان بابتعادي عنهُ سعدكم كما كنت

«ماذا اقول لكم غير ذلك الا ان عندي بعض الاحزان كالغيوم التي تغطي وجه السماء ولكن اضرب عن ذكرها صفحًا لئلا تؤلمكم وتزيد اسفي

«صحتي والحمد لله احسن من قبل واشتغل كثيرًا جدًّا وقد نشر ابتدائي في الغناء اوائل حزيران في ملعب البركولا

«ولكن ليتكم كنتم معي تحت هذه السماء الصافية وفي النعيم الدائم · نعم كنت ابدًا انزع الى معرفة ايطاليا تلك البلاد المطربة المستنيرة بشمس لا تتغيب في غيم وباعمالها المشهورة ولكنْ لا اراها كما اود اذ على كل

خطوة يخنبط القلب لما ترى العينان من افانين الهوى ونقوى فيهِ العواطف حتى يتمنى كل ساعة ان يكون للفتاة يد تهزها بمحبة وقلب تفرغ فيهِ ما يزدحم من التاثيرات ولكن تذكاري هو انيسي الى ان يسمح الله فاذهب اليكم وانطرح على قدميكم واستغفر عما اسأت بهِ واطلب تلك الملاطفات والمؤانسات والقبل الطاهرة المحيية تلك الكنوز التي حرمت نفسي منها بسبب بعض الانفه وحزن جسيم وامل مجد غير اكيد

«عليكم السلام يا اصحابي الاعزاء بل نراكم بخير وللامير احترامي ولكما قلبي فاقتسما قبلهُ ولا يكن ولدبير طامعًا فلا يبقي جزءا كبيرًا لصديقتي الحزينة وامنا العزيزة «مرتا»

وبعد تلاوة هذه الرسالة التي رآها قصيرة لمع بارق امل في عقله وقالت لهُ امهُ

– انظر يا ولدي كم تحبنا ولكن لطف قلبك اني اكتب اليها غدا وفوادي يشهد انها ترجع

ولما اختلى ولدبير في غرفتهِ اعاد تلاوة رسالتها وتقبيل تلك الرقعة التي اشتم منها عبير مرتا ثم كتب اليها رسالة ملأها من الحب والغرام وشكوى ما اصابهُ من الآلام

«سامحك الله ايتها القاسية العزيزة على الالم المهلك الذي سببهُ لي فراركِ لاني جهلت كم سفرك الشديد الغير المنتظر يضرني طول حياتي

«وان الله لم يسمح ياعزيزتي ان اطلعك على اماني اليك وكان الكلام يصل الى شفتي دون ان يتعداها كلما اردت ان آتمنك على اسرار قلبي فاخذته والكنز الثمين الذي كان فيهِ. حب طاهر صحيح لا يوحي مثلهُ الا فائقات الجمال والكمال

«ويلاه كنتِ صغيرة لا اسرة لكِ ولا محب الا قلب امي وقلبي وربيت معك حتى ملأ قلبي ظني انك تكونين لي وعشتِ مدة عشرين سنة في

ولايتي . لي كنت بلا اقتسام ولا رقباء ولا عذاب . جعلت منك اختًا لي ورفيقة مؤنسة وعللت نفسي اتك « سامحيني لهذه العبارة » تكونين حليلتي ومنذ صغري اعتبرتك خطيبةً لي

« وعليهِ دمت مصورة في فكري اجمل من كل امرأة في العالم حتى قل اصطباري ان اراك كبيرة وبقيت شغلي الدائم وغناي وفرحي الملازم

تعرفين كم تحب امي الزهور و باي اعتناء تسقيها كل يوم بيدها امام البيت وترقب اذا كانت قد نجحت ام لا و تصلح بعضها وتغذو بعضها وانت وحدك كنت الزهرة التي عنيت بها حتى ماصدقت انها تنور وجعلت كل يوم اتامل فيكِ فعل نهار زاد بهِ عمرك لانني احسست بشبابي حين لم تكوني الا ولدا

«سني وسنك واحد غير ان الغرام لا يعرف السنين فقد استولى على قلبي وكم من مرة تبسمتِ فحزنتُ لامر اليوم استفسرتهُ

« كل ما ملكت يدي جعلتهُ وقفًا عليك حياتي واموالي واميالي واملت في احزاني انك يومًا ما تحولينها الى فرح وممن غيرك كنت انتظر لحظة حب وتبسمة عشق انت الذي اصبحت حينما اصبحت اخاك عاشقك

«ومع ذلك كبرت تحت جناح طائر ملئه حب لك دون ان يمس قط بعبادة دنسة طهارة نفسك وان يخطف فمه عن وجهك لون زهرة الفضيلة البالغة المحيية المكللة بندى التقوى بل قبلتك قبل اخ ولم ابعث فيها نار الغرام وكلما امسكتك بيدي ورايت ابتسامك النقي ذكرت انك اختي الصغيرة ونسيت اني انا محبك الشقي المنتظر غير مصطبر

« عند ما قرأت لك رواية برنردان الشهيرة بكيتِ مع انك لم تفهميها كما فهمتها انت ظننت قصة اخ واخته وانا خفت ان يصيبني كذلك العاشق وحبيبته

«وقد عذبني ذلك الكتاب وابكاني لاني فهمت مخاوف الواحد والام الاخر وكيف الشبيبة تطلب في قلبي شرح اسرار الحياة ونتمسك بشوق بأَول شيء نقع عليه

«ولكن اقري يامرتا اني ماقصرت عهد جهلك لهذه الامور ولا افلتت من فمي كلمة تعلمك ان في الحياة احزاناً سرية محرقة بل ابقيتك في سن العشرين في الامانة والراحة التي كنتِ بها بين يدي مرضعك

«ولكن يا للاسف كبرت واقمت على وعدك حيناً وبهر جمالك وطهر صوتك حتى تشتهيه الملائك ولكن لغيري ذلك الصوت والجمال

«سلبتني كل تلك الكنوز وذهبتِ بها تحت آفاق اخرى ومنحتها لاسماع وابصار اخرى ياويلاه واذا خفق قلبك يامرتا اول مرة أيكون ذلك لغيري» «ولديير»

وفي الغد اتت جوليا والرسالة التي كتبتها بيدها فقالت

— الا تزيد شيئاً على ذلك ياولديير

— قد كتبت اليها

فتقدمت اليهِ باتضاع وقالت

— أَ كتبت اليها

ففهم ما تريد وسلمها رسالته فقرأتها واعجبت من ذلك الكلام المفعم من الحب في اشد حرارتهِ و بكت بكاءً مرّاً ولم تتمالك ان صاحت

— ما احبه لها واحبيباه

الفصل الثالث والثلاثون

ليست محبة

بعد انتظار اربعة ايام لم ينل ولديمير جوابًا على رسالته فابتدأ باليأس خائفًا ان تكون قد تغيرت مع تغير البلاد و بكى طويلا اذ لم يردد الصدى ذلك النداء القلبي نداء هوى عاصف شديد

فتنهد وقال لله يامرنا ايمكنك ان تعرفي كم من العذاب احتملت لاجلك

ثم وقع يوم محفل كانت اعدته الكونتة باسيليا فدعا الامير ابنه اليه فاطاع صامتًا . الامر الذي ملأ اباه من التعجب فقال له

— اني راضٍ عنك ياولدي ولديمير والطاعة التي استعملتها لمرضاتي محت كل زلّةٍ اقترفتها امامي وان ذوي عمرك يطيعون اميال افئدتهم و يضلون فما اريد الا صالحك وحسن مستقبلك وانت ستعرف ذلك يومًا ما اذ لا تزال تجهل ما هي الحياة فاتبع الان نصائح ابيك الذي يحبك والذي هو خصوصًا اعز واصدق صاحب لك

ولكن هذه الكلمات الحكمية لم تفعل في قلب ولديمير سوى القلق والتشبث في عزمه على دفع ما سعى ابوه سعادته بكل الذرائع التي في وسعه

و بعد الغروب رقص ولديمير مع سليكا وانفرد بها في جانب من الردهة خالٍ من الناس فاعطته ذراعها وافتكرت في نفسها انه سيحدثها بكلام لطيف عن زفافه عليها

اما الامير والبرونة باسيلي فكانا يرقبانهما باعين سرقة

فتشوشت سليكا من سكوت ولديمير وارادت ان تفاتحه بالكلام

— ان اباك وامي يرقبانا

فقال ملقيًا نظرة على ابيه وامها اللذين كانا في الجهة الاخرى من القاعة

— لا يسمعاننا

— نعم ولكنهما ينظراننا

فاخذ يدها وقال لها

— فلنسترح هنيهة لاني محتاج اليك قليلاً ياسليكا اني انفردت بك لاطلعك على اسراري . اني احب كثيرًا الفتاة التي نظرتها في المرقص الاخير عند سفير ايطاليا واعرف انَّ ابي مرتبطٌ مع امك على اتحادنا

— ولكن تلك مسافرة ولن ترجع مطلقًا اليكم

— اظن عكس ما تتوهمين

— ولكن تعود بعد عهد طويل

— انتظر ما شاء الله

فقالت سليكا والدمع ملء اعينها

— الا تقدران تنساها

— اني احبها ابدًا ولا اسلوها بحياتي فتزوجي ياعزيزتي سليكا بالمهر الجسيم الذي عينتهُ لكِ والدتك انك ستجدين رجلاً احسن مني وقد تحيت بك لاعلمك بذلك واستحلفك بالمحبة التي تظهرينها لي ان ترفضي الزواج بي قائلةً انكِ لا ترضين برجل حر الافكار . انتِ لا تعرفين ما امر الحياة عليَّ ولا احتمل عراكًا ولولا خوف الحزن الذي يلحق بامي لا تحررت بلا شفقة على شبابي

ثم ارجع ولديير رفيقتهُ الى مكانها وحياها

فلم تتمالك سليكا ان تجيبهُ بل تنهدت تنهدًا عميقًا لابتعاد من تحبهُ عنها

وعند المساء لما رجع الامير الى بيتهِ وكان قد ابصر قلق سليكا مطبوعًا على وجهها وولديير يسأَل اذا وصلتهُ رسائل اخذه الاضطراب وشك في وقوع حادثة لا يعلمها واستاء لانخداعه من حيث توهم ان ابنهُ قد تغير قلبهُ وعواطفهُ

ولكنهُ افتكر في وسيلة يقتلع بها الشر من اصولهِ فقال اذا كانت مرتا

هي رضيت بان تبتعد عنا فلا اسهل من تشجيعها وتثبيتها في مقاصدها لتبقى سائرة على هذا الطريق فاكتب اليها كيف تسلك مع ولديير لينفر منها وفي الغد اجتهد في جمع ما استدان منها من الدراهم مبلغ اربعين الف فرنك ولم يحسب للخسارة لظنهِ انهُ يفقد قليلاً ليكسب الكثير فابتدأ بالرسالة

ولدي العزيزة

«اصفحي عن نسياني بان ارد لكِ الدراهم التي تكرمت بها عليَّ لاني لا اريد ان تكوني بسببي في ضيقةٍ ولا سيما في الغربة فتقبلي الدراهم وشكري الحميم

«اني حزين جداً ياولدي وولديير لا يزال معذبي اعرف انهُ كتب اليكِ وللان لم تجيبيه فاكتبي اليه وعزيه ولكن اقطعي منهُ كل الامال الكاذبة

«قد تكلفت ضحيَّة تكلفناه نحن ايضاً فلا نضع ثمرتها . اعطيه شيئاً من صبرك وكوني لهُ ودودةً وشفيقة كما كنت منذ عشرين سنة و ياحبذا لو الظروف تسمح بان تكوني لهُ اكثر من شقيقة استودعكِ الله ياعزيزتي لي ثقة بكِ وابارككِ»

الاميرا ويبروف

وبعد نهاية الرسالة وقف الامير منبسطًا وقال قد صفا بالي اما ولديير فقد سهدهُ الغرام وقضي ليالي بعد حبيبتهُ لا ينام

وبينما هو ذات صباح جالس قريبًا من نافذة مسترخٍ ضعيف يكاد يبرد الموت على وجههِ مكتنف اليدين منحنى الراس مستغرقٌ في الافكار مغرورقة عيناه بدموع الحسرة والاسف فتح باب غرفتهِ ودخلت امهُ حاملة رسالةً فكاد يغشى عليه من الفرح فتقدم اليها مسرعًا وضمها الى صدره وقبلها بشكرٍ وقال . ارسالة منها

وتناول الكتاب وقبلهُ بشوق ثمَّ فضهُ وما قرأَ منهُ الا الاسطر الاولى حتى امتقع وجههُ وانحنى منحنيًا كانما اصابتهُ ضربة بقضيب من حديد واوقع الرسالة حزنًا فخافت جوليا لهيئة ولدها المرعبة ولمت الرسالة واخذت

تقرأها بصوت مرتفع لتتأكد انها غير حالمة

« اجثو على قدميك ياولديمير لاستغفر اليك عن الكفر الجسيم الذي »
« اقابل به حبك العظيم وانك ستقول فولي اذا قرأت رسالتي قد »
« اقسمت امام الله والى امي المرحومة ان لا اكون امرأة لك الاَّ برضىً من »
« ابيك واظن انك لاجلي لا تقاوم ارادة والدك بل يجب عليك ان »
« تتجلد وتحترم ذلك كانهُ قضاء لازم »
« ولكن اذا كانت اشباحنا تنفصل في هذه الدنيا فارواحنا لا تزال »
« متآلفة الى ان تجتمع اجتماعًا لا يشوبهُ افتراق في الابدية وهناك نجد ما »
« فقدنا من السعادة والمسرات وتتعرى نفوسنا من الواجبات والاكاذيب »
« الدنيوية وهناك نستعيض بالراحة الدائمة عما تحملنا من الشقاء فلنعدل »
« عن الافراح المادية لانها وا اسفاه حرّمت علينا واخبرني ان نفسك »
« ترضى بالزفاف الموعود بعد هذه الحياة وتجبرني ان احنث بيميني بل »
« احبّني كاخت شفيقة لا امراة موعودة ولكَ امامكَ باب واسعٌ لمستقبل »
« جميل فادخلهُ بلا توقف واقضِ حياتك بالالفة مع امرأة تقدم لك »
« نفسها طول حياتها »

« استودعك الله يا اخي الحبيب قد كرست لك هذا الاسم والى الابد يكون عزيزًا عليَّ »
(مرتا)

فصلت جوليا صلاة عفيفة الى الله لينقذ ابنها من الوهدة التي سقط بها و بعد دقيقة التفت اليها ولديمير التعاسة كآبة لا توصف وقال لها والتنهد يقاطع صوته

— انني تعيسٌ جدًّا وا اماه

— تصبر يا ولدي ان مرتا مجنونة حمقاء

— لا بل لا تحبني يا للاسف

الفصل الرابع والثلاثون

طريح الفراش

وفي ذلك المساء نفسهِ كتب ولديير الى مرتا اربعة اوجه ملأى اوضح فيها كل ما اصابهُ من اليأس وشكاها اليها على ذلك المقصد الذي بهِ تقاوم قلبها مبتهلاً اليها ان تحنث بيمينها مدعيًا انهُ يذلل كل الصعوبات من اجلها وانهُ يحبها ابدًا على الرغم منها ومن نفسهِ ومن ابيهِ واستعمل في تلك الرسالة كل ما يؤثر في النفس ويخيف ويقلق الخاطر وختمها بتهديدات مرهبة انهُ يعمل بقتلها وقتل نفسه ويتخلص من حياتهِ المرَّة ثم وضع ولديير الرسالة في جيبهِ ونزل الى الغذاء يريد ان يرسل كتابهُ مع اخر بريد ولكنهُ لم يجسر ان ياخذ الرسالة بيده لئلا يلحظ ابوه عند خروجه المواصلة السرية التي بينهُ وبين مرتا فاعتمد ان يسلمها الى ازيب — رجل قديم في خدمة آل اوبيروف وُلدَ ولديير في زمانهِ عندهم . وانتظر الشاب اياماً طويلة فلم ينل جواباً يعزيه في احزانهِ فبات يقول في نفسهِ وا اسفاه قد جعلتها موضوع سعادتي ولكنَّ جفاءها الذي لا افهم سببهُ يقطع آمالي ويبضع اوصالي

وفي ليلة بعد العشا ادعى ولديير بانحراف مزاج وصعد الى غرفتهِ صعودًا مهلاً كانهُ شيخ اوهنتهُ الايام : فنظر الامير الى جوليا مضطرب البال وقال :

— ان ولديير يخشى عليهِ مما المَّ بهِ

— نعم يخشى عليهِ من الالم الذي سببتهُ لهُ عمدًا

— بل تلك تصورات وضعتها في عقلهِ فتقدبه وتظنين انك تشفينهُ بمساعدته في مكاتبة مرتا الخطرة لعقلهِ ولصحتهِ وقد قلَّ اكلهُ ولا ادري مما

يعيش وان الحب مطبخ الشيطان فكيف يفوتهُ
— لا ذنب عليَّ ابداً وقد غلط بما تثبت لي وان ولديير تعيس لانهُ لا تصلهُ رسائل
— لطفي بالك اني ساشفيه واسليه
و برقت اسرّته لعلمه من هذا الجواب ان حيلته قد نجحت وان الشرك الذي نصبهُ لم يخلُ من الصيد
—لعل ولديير يبكي زماناً بعد ولكنَّ صدود مرتا يجلب السلو فينساها
وكان الامير قد شعر باتفاق بين ابنه واز يب الخادم الذي ائتمنهُ ولديير على كل اسراره فاستدعاه عند اخر رسالة كتبها ولديير لمرتا و بعد الفحص المدقق قال لهُ
— كل الكتب التى توجه الى فلورنسا وكل التى تاتي منها يجب عليك ان نقدمها لي ا كانت باسمي او باسم غيري من اهل البيت اريد ان اقرأها وافحصها لان من فروضي ان اسهر على سعادة ابني فنم ما عليك برضاي واعمل باوامري او اطردك . فاستوجب هذا التهديد اقرار الخادم لحرصهِ على البقاء عند سيده وقال في نفسهِ ان الاب يعرف احسن مني مصلحة ابنهِ فلعل بذلك خيراً لولديير واجاب سيده
—سمعاً وطاعةً . ثم سلمهُ رسائل ولديير الى مرتا ومرتا الى ولديير بكل امانةٍ وعند قرآءة اخر كتابٍ من ولديير قفز الامير خوفاً من جنون ابنهِ لانهُ كان يسألها في تلك الرسالة ان تصطبر حتى يدرك سن البلوغ فيتحرر من ربقة ابيهِ و يتزوجها
و بعد ايام اقبلت رسالة من مرتا الى جوليا لم تذكر فيها شيئاً عن رسائل ولديير لانها لم تصلها وكان فحواها ان تكتب جوليا اليها لانشغال بالها من جهتها وتعجبها من تلك المقاطعة الغير المعهودة
اما الامير فتقلد خط ابنه بنوع غريب في الوكة بعثها لها وكان ختامها

«انسيني وكوني سعيدة وعليك السلام»

فاضطربت مرتا عندما بلغتها هذه الكلمات ولكنها تجلدت على أمرها

وبات ولديبير يضعف يومًا فيومًا وجوليا تراقبهُ وتلاطفهُ وتحسن خدمتهُ لتخفيف مرضه لانهُ هزل حتى صار كالخيال واصابتهُ حمى شديدة ملأَت عينيهِ من نورٍ مخيف ولم تكن جوليا تذكر لهُ اسم مرتا لئلا يشتدعليهِ الداء ويذهب بعقلهِ وقالت في نفسها ما اكفرها بالجميل قد سلب المجد والفن نصف عقلها وقلبها ويلاه واصبحت قاسية الفواد

ولزم ولديبير غرفته لا يخرج منها الا القليل مصرًّا على عنادٍ اعنت الامير اباه الذي لم يتصور قط ان ابنهُ يموت عشقًا لانهُ لم يصبهُ شيء من من ذلك في حياتهِ كلها غير انهُ اضطر جوليا ان تجبره على تناول الطعام وكانت جوليا تجثو على قدميه وتبتهل اليهِ ان يعيش من اجلها ولا يرفض المآكل التي تقدم لهُ لتقوية جسمه فما زاد ذلك الا قوة الحمى واشتداد الداء ولكن الطبيب بعد جهد المحاولة قطع المرض عنهُ بضعة ايام

وان من الناس كالامير من يظنون انهم يحبون لاولادهم وقد يجودون بهم لاتمام مقاصد سنوها لانفسهم كالشرائع مصرين على عنادهم وفي عمايتهم يوقعون في الهاوية من اتخذوا تحت حمايتهم

وعلى امر الطبيب الزم الامير ابنهُ ان يرافقهُ الى المراقص والملاعب والسهرات الانيقة ولكنهُ اطاع مكرهًا ولم يبتسم قط ولا انتبه الى احدٍ وكان الامير كلما رجع الى غرفته وخلا بنفسهِ زاد جنونًا مدعيًا ان الملاهي والمسرات تشفي ابنهُ وذات صباحٍ بعد ان سهر الاميرطول الليل على فراش ابنهِ يتأمل ذلك الشاب الجميل الذي اصبح ارق من الظل اخذ يديه والتفت اليهِ بانعطافٍ وحنو وقال

— واولداه واعزيزاه فنظر اليهِ ابنه باعين لا تكاد تفتح من ثقل الحمى

— ماذا تريد يا ابي

— ان تعيش يا حبيبي
— ويلاه لا اعيش بعدها

الفصل الخامس والثلاثون

المنشده مرتا

اعلن ظهور مرتا في ملعب البركولا بكل الذرائع التي توصلت اليها مهارة سلياري في مهنته وكان ذلك سبب احتجاج طويل بينهُ وبين مرتا التي ما عرفت نتيجة تلك الاشاعات ولا حسبت لها حساباً اما سلياري فلم يأْلُ جهداً في اسقاط مجد الفوبلينا اول منشدة في ملعبهِ لتظهر مرتا ارفع واجمل واكمل وضحكت الفوبلينا من المغنية الجديدة ومن سلياري الذي اتى بها مدعية انها في اول مشهد تقهر خصمتها وتفوز عليها امام الناس ومع ذلك خافتها في قلبها لما رأت عندها من الصفات العجيبة وفي ذلك الوقت بذلت مرتا الجهد في اطفاء غليلها الذي شعرت بهِ من عدم كتابة اصحابها اليها ظانة انهم نسوها بسبب خيانة ورداءة الامير او بيروف الذي حسبت ان مقصدهُ تم ولولا الدرس الدائم يسليها قليلاً لضاقت في عينها الدنيا بعد ذلك المصاب . وفي التشخيص الذي سلف ابتداء مرتا غلب الخوف على قلب الفوبلينا حتى ان صوتها ارتجف وترتيبها تشوش ولم تقدر رغماً على تصفيق التشجيع الذي سمعتهُ الا ان تغني غناءً فاسداً اخجل اصحابها وسبب دمدمة احتقار من سائر الناس

اخيرًا اقبل اليوم العظيم لمرتا السابع والعشرون من نيسان فامتلأ فناء الملعب من الناس واختلت الفوبلينا حزينة صفراء في موضع منعزل تبصر منهُ ولا تكاد تبصر ولم يبقَ موضع فارغ الا موضع سفير فرنسا وكانت النساء متجملات بابدع الحلى والرجال مالئي الاماكن وكان منهم من تعجب لغياب

سفير فرنسا فقال احدهم الى غريفلي

— اخافَ السفير ان يشهد انحطاط حبيبتهِ الفو بلينا فلم يجيء الليلة

— انهُ مريض بقلبهِ منذ شهر ولم يؤذن له الا هذا الصباح بالقيام من الفراش

— اعرف ان القلب وحده ضعيف في السفير ولا سيما معي وانهُ منذ شهر حاقد علي لذنب صغير

— نعم اعلم . تلك مسألة نسآء وان فرناندو كثيرًا ما يحب الفو بلينا وهي ثقيلة لا تستحق هذا العنآ

— انها حمقآء حسبت اني احبها لاظهاري لها بعض الميل فشهرتني بذلك امام الناس واعجب كيف فرناندو اخذ في فخها وهي اخذت في فخه ايضًا وما العاقبة

— الله يعلم

وكان فرناندو قد طلب سفارة فلورنسا لالم اصابه في قلبه واشتد عليهِ في فرنسا بعد سياحة طويلة فاخبر ان هوآء تلك المدينة يصفو لهُ وعندما ارسل الى فلورنسا مكان البارون شيبلاس الذي اضطرتهُ السنون ان ينعزل ظهر فرناندو كالملاك نسبة اليهِ ولا سيما عند النسآء اللواتي فتنتهن قامتهُ الثقفه وشعره الذهبي الذي لم تكللهُ السنون بخيط واحد من فضه وجلده الابيض الرقيق الذي لم يحمل لطخة مرض ام تعب وعيونهُ البراقة التي زادتها الايام لمعانًا وفي الجملة رجل يحسده الرجال لما منحتهُ الطبيعة من التمييز في خلقهِ ورتبتهِ وقد قيل انهُ قبل بسنتين فقد امرأته فقدًا فاجعا أن بينما هما ماران في لندرا حضرا مصيد ثعالب امر بهِ احد اللورديه العظام وفي اثنآ الصيد لحظ فرنان ان امرأتهُ ميالة الى شاب ظريف هناك فابتعد قليلاً ليعرف الحقيقة تمامًا ثم اسرع بخفة ودهمهما يتكالمان بحديث الهوى فلما رأت زوجها تلك الكافرة التي اقتنصت منها السمآء لخيانة رجل جميل كزوجها ردت رأس حصانها بشدة غير منتبهة للهاوية التي وراءها فزلت رجل الحصان وسقط بها وما اخرجت

من هناك الا محطومة مهشمة ميتة

نعم ان هذه الحادثة التي تناقلتها الناس صحيحة غير انهم زادوا عليها دعوى العشق للمرأة وإذا ان فرنان لم يكن محبًا لها لم يؤثر فيهِ فقدها الا للحال ان زاد مرض قلبهِ فبات قاطع الامل من الشفاء يتألم كثيرًا منهُ ولا يذكر بعد التي تزوجها وما عندها الا قوة عقل وصلابة قلب وان مرضهُ مسح وجههُ باصفرار لطيف سحار وزاد فيهِ تلك النحافة التي تفتن النسآ حتى احبتهُ كل سيدات فلورنسا وضرب المثل بجمالهِ وكانت الفوبلينا معشوقة السفير التي حملتهُ على حبها الغيره لانها كانت اجمل نسآ فلورنسا واعظم منشدة حتى ما قلَّ من شبان الاشراف الذين كانوا ينطرحون على اقدامها للتمتع بملاطفتها فقط فكيف لا يسلبهم اياها رجل قلبه ممتلئ من الكبريآء والصبابة بالنسآ

وانهُ في اول عهد مودتهِ لها كتم امره ثم فتح فرجةً للابصار من خلال ذلك الغيم وما لبث ان اشتهرت حالهُ وتحدث بها الناس ولكنهُ خوفًا على اكرامه وشرفه لم يتسامح قط بنزق معها ولا بحيلة رديئة العاقبة تسيء الظنون بهِ والناس لا يخفى عليهم شيء لذلك زادت تجلتهم لهُ وقدروه اكثر من قدره ولم تكن الفوبلينا تميل الى فرناندو ميلهُ اليها بل احبتهُ حتى لم تمنعها كبرياؤها التي طبعت عليها من الانحطاط امامهُ والخضوع لاوامره معجبة بما لهُ من الجمال الفائق والثروة العظيمة والمقام بين الامرآء والاشراف وقوة السطوة في الحكومة

وفي الغد عندما سمعت غناء مرتا ورأت زلتها امام تلك المنشدة العجيبة التي بابتدائها كاد الناس يجنون بها كتبت الى فرناندو تشكو غمها وتبكي همها واختلت في قصرها لا يدخل عليها احد ولا تخرج الى مكان

اما الكونت غريفلي صديق فرنان فافاق ذلك الصباح حائرًا كل الحيرة تقتسم نفسهُ عواطف مختلفة واحسَّ ان قد اضطرمت فيهِ نار جاحمة

اولعها صوت مرنا في قلبهِ وجمالها العجيب حتى يكاد يفقد رشده وهو الذي صفق لها استحسانًا مرارًا عديدة ورمى لها ثلاث باقات زهرمن اجمل ما صنع مع انهُ نظرًا لصداقتهِ مع فرناندو كان قد اتى ليهزأ من خصمة الفوبلينا معشوقة صاحبهِ ليرضيهُ بذلك وعندها ارتبك في امره كيف يواجه فرناندو وهل لا يكون جنونهُ الذي اصابهُ امس سببًا لفقد نعمتهِ من حيث ان الكونت غريفلي كان محتاجًا الى صديقه بالمال والمشاكل في الحكومة واعظم المهمات ولا سيما وقد تعاقبت عليهِ ايام السوء طويلاً وحطت من قدره المرفوع وجعلتهُ بعد ان كان سندًا ان يحتاج الى سند وكان لهُ امل عظيم في المستقبل بسبب السفير وهذا ماحدث الامس في آخر مشهد بالملعب

جلس غريفلي قريبًا من مكان الفوبلينا الخفي وهو لا يدري فاخذت ترقبهُ منذ قعد واذ حالت منهُ التفاتة فابصرها في تلك الخلوة تلهب جزعًا واحدق بها قليلاً ليتميزها فوجدها ممتقعة الالوان صفراء راجفة كالملكة المنعزلة عن العرش فقام وقصد مكانها ليعتذر اليها عما حدث منهُ ولكنها عندما ابصرتهُ مقبلاً من الجهة الاخرى توقدت غضبًا وفتحت الباب ثم دفعتهُ بوجهه بحنق وقالت باعلى صوتها اذهب يا خائنًا كافرًا ثم خرج غريفلي من الملعب حائرًا كيف يلتقي فرناندو وقد اساء الى صاحبته وماذا يخبره عن تلك المنشدة الجديدة التي سحرت العقول ولم يبقَ قلب الاَّ اصبح بهواها متبول وانهُ مع ذلك اتمامًا لاوامر السفير قصد داره ليتم ما وعده بهِ امس من ان يخبره عن كل ما يحدث في الملعب ويصدقهُ بالكلام عن صوت تلك الفتاة وجمالها لانهُ سمع عنها ما لا يكاد يصدق من الغلو بالمدح واذ لم يمكنهُ مرضه من تاكد حقيقة المقول ظن ان غريفلي يأتيه بالشهادة الصادقة وهمه ان يعرف من يغلب من الخصمتين

ولما اقبل غريفلي دخل بلا اذن كمعتاده وان يكن الوقت قبل الغداء

ووجد السفير مستلقيًا برخآء على تكأة طويلة فسلم عليهِ ووقف فرناندو فقال لهُ

— يظهر انك اجدت بالاستحسان امس . قد كتبت الفوبلينا اليَّ وهي مغضبة عليك حتي تريد موتك

—آه ياعزيزي اني مذنب لا شك ولكن اسمع

— ان فوبلينا القاضي وما اظنها تغفر لك هذا الاثم الذي اسأت بهِ الى المحبة انها هرة ولها اظافر نمره

— ماذا تريد ان اعمل فقدت رشدي وا اسفي عليها ولكن اذا فهمت صفحت عن ذنبي بل ليتك سمعت تلك المخلوقة السموية التى القتني في دهشة وأولتني انسياني نفسي هنيهة من الوقت ونسيت الارض كلها وظننت اني في النعيم نعم انها ملاك بهيج

— ارى من دهشتك وافتتانك انها افقدتك شيئًا اكثر من رأسك

— ان هذه الفتاة فيها روح من الهة المغنى فهى تحرك شيئًا شيئًا حتى لا يقدر السامع الا ان يعبدها ويجثو ساجدًا امامها اذ صوتها يكلم القلب وقد افرغ من عيني كل دموع الاسى وجمالها ابدع ما يتصور وهم انسان فسبحان الله

— اذن قد فتنت بها

— نعم واكثر لو رأيتها او سمعت صوتها . لا شيء يشبهها مطلقًا حينئذٍ لا تتكلف لوداع الفوبلينا فقط

وإني لا انكر ان الفوبلينا ذات صفات بديعة عديده ولها صناعة قلَّ من ياتي بمثلها غير انها كلها ظهرت لي جنب صفات تلك الفتاة كشيء لا يستحق ان يلتفت اليهِ

— سأرى هذه الاعجوبة وأُريد ان احكم انا نفسي على ذلك الصوت الكامل الذي لا يحتمل التخطئة وإن اعرف اذا كان تصورك لا يعيرها

اكثر مما هي عليهِ

—اياك ان تنظرها او تسمعها لئلا تذلّه وتموت . لا تشك في القوة السحرية التي تنبعث من تلك الصبية النيرة وان حياتك صافية راضية وانت بها ناعم سعيد فلمَ تجلب انشغالات القلب التي لا شك تفني اقوى الرجال فاياك المنشدة مرتنا

— انك في الحقيقة فاقد الحسّ اليوم ضعيف المشاعر أتظن ان تلك الصغيرة تحني كما تريد كل الرؤوس

تعرف ان راسي صعب احناؤه وتلك الملاك كما دعوتها قد اخذت عقلك تحت جناحها وما ذلك سبب لارتجف واخشى فان في السماء اماكن لكل من رفعتهُ قدرة لاتوصف اليها والنسر لا يخشى الزرزور

فلم يجب غريفلي بل هزّ رأسهُ هزّةً كثيرة المعاني

— دع عنك الاستغراق في الاوهام انت محب وانا افهم واسامحك عن هذا الضعف الذي سقطتُ بهِ مرارًا ثم قويتُ على التخلص منهُ

وافتكر قليلاً فظهرت عليهِ امارات الكدر ثم عاد على بدء ما قال

— اني شجاع حتى في الحب وطالما وقعت في حر النار . بعد ثمانية ايام اشفى كما وعدني الطبيب ولا اخرج من هنا الاّ الى البركولا وترافقني ياغريفلي

فاجاب غريفلي وعيناه واقفتان كانهُ يتفكر مليًا

— لاشك ياعزيزي

و بعد دقائق صُرف غريفلي باشارة لطيفة فخرج والاحزان ملمة بهِ

— ما ابلهني كيف مددت الشرك الذي سقطت بهِ وان افتتاني بالمنشدة قد حبب فرناندو بها . كان عليَّ ان اخفي تاثيراتي عنهُ

ولا عجب فان غريفلي بما طبع عليهِ من الطمع الشديد نسي ان فرناندو صاحبهُ الاعزّ وظنّ انهُ يستلبهُ ذات يوم تلك التي هام بها غرامًا وان

صديقهُ القادر يصبح خصمهُ للتوصل اليها فتقطعت آمالهُ واستولت عليهِ الكآبة وقرض اصابعهُ ندمًا لاقراره امام فرناندو بكل ما سمع وابصر وصعب عليه جدًّا بعد ان كان مساعده على نزقهِ وملاطفاتهِ للسيدات ان يصبح آلة لصاحبهِ ضد مرام نفسهِ وحار في هل يجود بنعيم قلبهِ على السفير من اجل صداقتهِ ونعمهِ ام يرضي نفسهُ و يترك صحبة السفير وهو محتاج اليهِ ولعلهُ ينغلب لهُ اذا حمل فرناندو عليهِ ولكنهُ قال في نفسهِ «اذا ظفر فرناندو فليكن ذلك باقرب وقت لعلي اخلفهُ فهو مريض»

الفصل السادس والثلاثون

قد سلاني

بين المجد والفخار كانت مرتا تخفي عن الابصار تحت ظاهرها اللطيف البرود نارًا احرمن ذات الوقود لان حبيبها ولديير انقطعت اخباره عنها مدة فظنتهُ قد نسي عهود المودة وجعلت تتأمل ما معنى ذلك النفار الفجائي وتقول مهلاً لم يحن لهُ ان يفطم ولائي وبينما هي ذات ليلة مختلية في دارها مع سلياري وامارات الاسف ظاهرة على وجهها وتتنفس الصعداء من قلب ناري سأ لها صديقها ان تشرح لهُ صدرها وان تخبره امرها لعلهُ يأ تيها بالسلوى ويخفف عنها تلك البلوى بدعوى ان

وإذا شكوت لسامع خف البلا فكانما قسمت عليهِ همومُ

فاجابت سؤاله بالقبول وشرعت تقول

— اني ياصديقي الكريم احب الذين نفوني من قلوبهم ولا سيما ولديير حبيبي ولا اظن انهُ نسيني للان بل انهُ مريض وانا مريضة والمريض طبيبي لهفي عليهِ فياحشاشة ذوبي

فضحك سلياري سخرية

— اخبرتني حالك فهاءنذا لا اكتم عنك ما اعلم لئلا تتألمي فانا لم ان ولديير صحيح القلب والبدن لم يحبك ولا يحبك فلا تبني الرجاء على خضراء الدمن

— لا تقل ذلك يا صديقي بجنانك ولا تحتقر قلبي الذي ينزع من الهوى فاني قد شيدت حبهُ على اساس متين ما احسبهُ قد هوى

—ان هذا الغرام اللعين يعذبك ابد الابدين فلا تعلقي آمالك على الهواء ولا تكتبي رجاءك على صفحة الماء وقد طالما كلمتك بالتلويح ولا اريد اليوم سوى التصريح ولو ان ولديير يهواكِ لفر من ابيهِ وجاز الدنيا ليراكِ

— ليس ذلك ببرهان ضد صفائهِ لي واذا كان قد احبني فلا يجب عليهِ ان يغضب اباه وامهُ من اجلي فاسمع اخيرًا قصة حياتي واياه وكم احبني ودفع عني واحترمني وليس لي في الدنيا سواه

واخبرته حياتها كلها بما تقلب عليها من الاشكال مع ولديير ثم ناولته الرسالة الاولى التي ارسلها اليها فقرأها وعجب لما اودعت من دلائل الحب الهائل وشكوى الشوق الغائل لكنه قال لها

— الا تذكرين الرسالة الثانية التى ودعك فيها الى الابد فما بالك دائمًا في قلق وكمد

— ان يده رجفت عند كتابته لان الخط تغير

— وقلبه قد تغير اكثر

— ذلك ذنبي انا الجبانة التي تركته واظهرت لهُ عدم الامانة فيجب عليَّ ان احتمل شقاء قلبي واحزانه

— يجب ان اريك النور حيث يظهر وان اقتل فيك ذلك الحب الذي تمكن منك و يكاد في العراك مع قلبك ان يظفر ولكن سامحيني على هذه القسوة فانها طبع في نفسي لا يغلب وخلق لا يقلب

هاءنذا آتيك برسالة من ابي ولديمير الذي يعرف اكثر منك قلب ابنه يخبرني بها عن طويل حزنهِ بعدكِ انه قد سلاك وعلق قلبهُ بسواك ولا بد من تجريعك هذه الكاس وان اطفيء بك الامل الذي يضيئك كالنبراس .

وهبّ لياتي بالرسالة فاستوقفته و بعد طويل الرجاء لم تصل الى استرجاعه فاضطرمت كيداً وعزمت على تكذيب الرسالة والاقتصاص من امتناعه وقالت له

— اذهب يا جلاد واجلب سيف النقمة لتقتلني بهِ على غير سداد اني اموت وحبي يدوم ان رمت او كنت لا تروم

و بعد هنيهة رجع سلياري و بيده رسالة من الامير اليهِ فقدمها لها ولما امسكتها ظنت ان يدها تكاد تحترق من مسها ولكنها اخذت تقرأ منها بعض اسطر

صديقي العزيز سلياري

« اشكرك كل الشكر على اهتمامك بابنتنا الصغيرة المحبوبة واسأل »

«ان تخبرها بكل استلطاف ان ولديمير متزوج مع السيدة سليكا باسيلي»

« وتقام الحفلة في كنيسة السيدة كازان »

« وهذا هو السبب الذي قطع من اجلهِ ولديمير رسائله عن مرتا»

« فطأ منها عن صحتهِ انها جيدة جداً »

« لقد تمت نبوَّتي وانها نجعت فقد نسيها تماماً اسرع ما كنت آمل »

«فعزّها واهدها جزيل سلامنا . . . . »

وما وصلت مرتا الى هذه العبارة حتى ضعف صوتها وما قدرت ان تتم تلاوة الكتاب بل طرحته من يدها واراد سلياري ان يكلمها فاشارت اليهِ بالصمت وذهبت فشربت اقداح ماء بارد لتطفيء حرارة قلبها ثم رجعت فجلست

— انسي يا مرتا كل هذه الذكر وافتكري في نفسك

— أأفتكر في نفسي انا المعذبة التي لا امل لها ولا حب

— اهتمي بالفن الملكي الذي احترفتِهِ وان المجد الذي تنالين منهُ جابر القلوب الكسيرة ومخفف الكروب الكثيرة

وما زال سلياري يكلمها ببرهان قاطع واثبات جامع مانع ويحرضها على الشرف و يسترضيها بالبقاء عنده في فلورنسا و بعدها مواعيد جمة فاجابت

— سامحني يا صديقي ولا تطل الحديث عليَّ فاني في شدة اسفي لا اقدر على مقصد راضٍ ولا كلام مفيد

فقبلها سلياري باحترام ومحبة أب وخرج مجروح القلب لتعذيب تلك الفتاة وقسوتِهِ عليها فلما توارى تنهدت مرتا وقالت

— اللهم ارحمني . يا امي العزيزة احميني وعزيني واسألي الله ان انساه لانه نسيني

الفصل

سعادة غير منتظرة وشفاء فجائي

علمنا ان مرتا للطفها واتضاعها لم ترد ان توقع على الصك الذي قدمه لها سلياري حتى تبدأ بالغنى و بعد ظهورها على ملعب البركولا واكتسابها ما رأينا من الشرف والحظوة العظيمة عند الناس عاد سلياري منشرح الصدر اليها فما رضيت بالاتفاق معهُ الا الى حين تبلغ سن الواحد والعشرين فسالتهُ ان يؤخر العهد الى الثالث والعشرين من اذار حيث نقف نفسها على الانشاد في ملعب سلياري وتاخذ بالتمتع بالمكاسب العظيمة الكثيرة التي تنالها بصوتها العجيب .

وأراد سلياري ان يقوم في ذلك النهار بعيد لائق لمرتا دعا اليهِ كل

اصحابهِ سابقًا واعدّ لهم من الطعام ومظاهر التشريف ما يضيق بنا المقام عن وصفهِ

ثم قصد احد كبراء صباغ المدينة وابتاع لها عقد جوهر مزدوج السلك وقدمهُ لها تذكارًا صباح الثالث والعشرين من اذار مع تهانئه الحرى فسرت مرتا لالتفات صاحبها ولكنها وبختهُ لكثرة ثمن تلك الهدية اذ قالت لهُ .

— ان بعض الازهار من يدك كانت سرتني كهذا العقد فما الجنون الذي حملك على تقدمة هدية غالية كهذه وانا لا البس منها ابدًا .

— لاباس ان تقبليها تذكارًا من صديق مخلص عارف الجميل ثم اعتذر اليها وذهب الى الملعب لبعض المهام فشكت اليهِ انها بدونه تهتم وتغتم وقالت لهُ

— عد سريعًا اليّ

— تاتين الى بيت صديقك بين الساعة الحادية والثانية عشرة لانك انت تكونين رئيسة المحفل وعندها توقعين على الصك اذ المدة قد انتهت فلا تتأخري

. . . .

وبعد ان شيعتهُ رجعت حزينة اكثر من العادة لانها وجدت نفسها منفردة في ذلك النهار الذي اعتادت ان ترى فيهِ حولها اصدقاء محبين يسرون لسرورها

ولا سيما السنة الماضية التي اقبل بها ولديمير عليها صباح ذلك اليوم وقبلها مبتسماً لها واليوم قد تغير كل شيء عليها اذ نسيها ولديمير وصاحبتها جوليا التي ربتها كابنة لها واهملها كل من عرفتهم لولا اعتناء سلياري بها وصداقة ذلك السيد الذي اظهر لها المودة دون ان تعرف لها سببًا وهو السفير الفرنساوي اذ انهُ منذ وعد غريفلي بان يذهب لاستماع صوت تلك

المنشدة والتمتع بمشاهدتها الممدوحه لم يبق له فكرٌ الا بها ولم يحلم الا بجمالها الفائق وصوتها البديع الرائق ولم يظهر له تذكار حياتهِ الماضية الخالية من الهموم الا كحلم سيء في نوم صعب القاه في عالم الاشباح والاوهام وآخر زيارة منهُ للفو بلينا كانت الطيف الاخير الذي اجتهد بالتملص منهُ والذي انتهت بانتهاه كل مخاوفه من الماضي

الا وقد اكتسب صحبة سلياري ليتصل الى مرتا ثم دخل في صداقتها دخولاً احتملهُ سلياري فيما هو رقيب لها حذرًا على مرتا

وان السفير نشر ازهار حبهِ حول مرتا يفوح منها عبق طيب النشر يكاد يسكر القديسات وهي احبتهُ بنوع عجيب لا يوصف دون ان تعلم السر في ذلك

و بقي السفير يتألم من الهوى و يريد ان يقطع الامل السري الذي في نفسهِ فلا يقدر على ذلك وقد ظهر لهُ المستقبل كغور لا يقاس ولكن الحال حسن في عينيهِ فحسبهُ نعمة من السماء عليهِ ان يتمتع بها وكلما رأى مرتا في الملعب قال في نفسهِ

— تلك هي الملاك التي تهديني سواء السبيل

ثمَّ مر بعقل فرنان فكر استصوبهُ وهو ان يكشف امره الى مرتا نفسها ويكف جماح قلبهِ بلا فائدة لان الحب يذلل كل الصعوبات التي تحول دون السعادة ومن ثم اخذ ينتظر الفرصة المناسبة لاتمام قصده

. . . .

اما مرتا فاستمرت طول النهار في تخدر اشبه بالغشيان حتى اقبل المساء فافاقت لنفسها واخذت تردد بعض الحان شجية وفي اثناء ذلك قرع الجرس قرعة خفيفة لم تنتبه لها ثم فتح الباب عليها ودخل شاب اصفر مرتجف تتبعهُ سيدة شيخة جليلة بيضاء الشعر واهنة القوى فصاح الشاب

— مرتا ياحبيبتي

فدهشت مرتا واستوت واقفة باسمة لانها عرفت الصوت الذي ناداها وقالت

— اهلا وسهلا بالاحبة

وقالت جوليا وقد قبلت مفرق ابنها ومفرق مرتا

— يا لها من سعادة عظيمة بعد آلام جسيمة

ولما فرغوا من كلام الوداد اخذت جوليا تقص على مرتا سبب انقطاع الرسائل ومعارضة الامير لسعادة الخطيبين وكيف انه نقلد خط ابنه بكل احكام وارسل لها ذلك الوداع النهائي واخيرًا قنوط ولديير الذي كاد يذهب بحياته واقرار الاطبا انهم عاجزون عن شفآء علة النفس وان الصبي اذا لم ينل المآرب الذي يتمناه قلبهُ لا شك يهلك فحينئذٍ خاف الامير عليه واعترف باثمه وخيانته وطلب الصفح من ولديير وانهُ قال اذ ذاك

— لا اريد ان يموت ابني فاذا كنت يا ولديير تحبها فهلم اليها وعد بها الى بيتك واسعد يا حبيبي . ولما سمع ولديير هذا الكلام لمع وجههُ وتنشط بعد طول الاستلقآ على فراش الالم وطلب المآكل التي طالما رفض ان يذوقها في يأسهِ ليتقوى على ذلك و بعد ايام خرج ولديير وامهُ من بطرسبرج قاصدين فلورنسا .

ثم قالت جوليا

— قد طال ما صليت الى الله حتى استجاب فالحمد والحول لهُ — خذي يا مرتا هذه الرسالة من الامير

«انتخبتك عروسًا لابني الذي ظهر احكم مني بكونهِ لولاك لعاش كل حياته شقيًا ومات كالغصن الرطب المقصوف اول اينا عه واسأَلك ان تنسي ذنبي اليكِ والطمع الردي الذي حملني على تلك الصنائع السيئة واليوم قد فتحت عيناي للنور والعن كبريائي التي اوشكت ان تستشهدا بني وعذبتك طويلاً وانك انتِ وحبهُ لك وامل ان يحبك بقداسة وصفآء

قلب رددتِ الى الحياة حبيبي ولديمير اذ بعيدًا عنك كان يذبل كالزهرة المستورة عن نور الشمس قد رددتِ لي ولدي فاباركك يامرتا واشكركِ شكر عارف لجميلك آمل انك تنسين سوء تصرفهِ معك وابتهل اليك ان تعودي الى البيت الذي اقصتكِ عنهُ عمايتي نعم عودي سريعًا لاضمك الى صدري وادعوك ابنتي واباركك وتكوني عروسًا لحبيب كبدي ولديمير

الاميرا وبروف

ولما فرغت من تلاوة الرسالة جهارًا قال ولديمير لامه

ـ متى نسافر

ـ غدًا ان شاء الله

وقالت مرتا

ـ لو ان للسعد اجنحة لطرنا سريعًا من هذه المدينة التي ابغضها لانها كانت منفى لي احتملت فيه من الالام ما لا تدركه العقول والافهام

— يا حبيبتي اتعلمين شدة فرحي الآن

— اتعلم اني لولا ذلك ما طالت حياتي يومًا

اذ قرع الجرس فجلس كل على حدة واستولى الصمت فدخل خادم ببطاقة[1] باسم السفير الفرنسوي مكتوبًا عليها

« اتريد السيدة مرتا ان تشرفني بمقابلتها »

فالتفتت مرتا الى جوليا وسألتها باللحظ ماذا تصنع واعطتها البطاقة فلما تلت جوليا ذلك الاسم خفق قلبها وصاحت صيحة دهشة خفيفة فعجبت مرتا وقالت

— ماذا افعل

— ليدخل الى غرفتك وانا اختفي مع ولديمير في هذه الغريفة المجاورة ثم دخل السفير وانحنى لها بكل احترام وقال

---

١ ورقة زيارة

ـــ ما زلت من زمان ارقب فرصة نكونين بها وحدك لان لي كلاماً مهما اعرضهُ عليكِ

— لسيادتك الامر فاني اسمع لما تقول

اشكرك على امانتك لاستقبالي في الخلوة معك فان تلك دلالة اكرامك لي واني اكرمك واجلك واليوم آتي لاشرح لك صدري فاني عابد لك وحبي ياذن لي ان افاتحك بحديث طالما ترقبت ان تعلميهِ فهل انت حرة ام قلبك مقيد بهوى انسان

لِمَ هذا السوال ياسيدي

قد تعجبين من جسارتي ولكن ستفهمين من تابع الكلام ما معناها على انني وجدتك يتيمة فلم ارد الا مواجهتك لاتزوج بك فهل ترضين بي حليلا يطرح نفسهُ على اقدامكِ ويقسم لك انك تسعدين عنده ولا ترين يوماً كريهاً تسر النفس فيهِ بالزوال

ففتحت مرتا فمها لاجابته واذا بجوليا دخلت من باب الغرفة وتقدمت صفراء كالموتى كبيرة العينين متجعدة الشعر وجلست قبالة السفير واشارت الى مرتا ان تدعهما معاً ثم التفتت الى السفير وقالت

—ياشقي لولم آتِ الى فلورنسا والى بيت مرتا اي ذنب كنت ارتكبت

—ما بالكِ ايتها السيدة تكلميني بالالغاز المحزنة التي لا افهمها

— انا جوليا صديقة كرمانه

فرجع الى الوراء مذعوراً

— انا التي بحسب ما وعدتك ربيت ابنتك الى سن العشرين سنة ابنة المرحومة كرمانة والاب القليل . الاهتمام نعم مرتا ابنة فرنان دي بالبان

— اتكون مرتا ابنتي

—قد ولدت في الثالث والعشرين من اذار ١٨٤٢ وهي ابنتك

فاصفر وجه السفير وارتجفت اعضاوه وابيضت شفتاه وضعفت ركبتاه فوضع يده على قلبهِ المريض وما رفع صوتهُ حتى سقط على الارض كمن اصابتهُ صاعقة

فخافت جوليا وحركتهُ فتدحرج امامها على الارض وارادت ان تنادي فلم يتعدَّ الصوت فمها وان تمشي فما قدرت ان تتقوم فسقطت مغشيًا عليها بلا حراك

وعند ذلك مرت مرتا امامهُ كالشبح الابيض وجثت على قدميه وقبلت جبهتهُ الصفراء بكل حنوٍّ لانها عرفتهُ اذ سمعت كلام جوليا لهُ وصلت قليلاً الى الله ليرحمهُ ثم قالت

— اني اغفر لك يا ابي

ثم وقفت وجعلت تعتني بجوليا مع ولديمير الى ان اصحت تمامًا و بعد قليل اقبل الطبيب وفحص السفير فقال انهُ قد هلك بسبب خفقان شديد لم يحتملهُ فوادهُ الضعيف واما مرتا فوعدت نفسها انها تكتم السر العظيم الذي عرفتهُ طول حياتها

فيا لها من ضربة شديدة و يا لهُ من تأديب مرهب ابقاها الله لهذا الرجل الخائن والاب المهمل ولذلك القلب الذي اضعفتهُ ثم قتلتهُ الشهوات

وفي هذه الحوادث اسرار الفواجع التي تنصب على الناس من علٍ لا كجلاميد صخر بل كنيازك من نار

الفصل

السعادة لا توصف

بعد شهر من تلك الحادثة عندما سكن هياج القلوب وصفا المحبوب للمحبوب رجعت مرتا وسلياري وجوليا وولديمير الى بطرسبرج فاستقبلوا

باكرام عظيم وحل سلياري عندهم محل ضيف كريم ونهار الاحد التابع احتفل بزفاف ولديمير على مرتا في الكنيسة التي رتلت بها اول مرة

اما سلياري فكان ينظر اليهما ويتمس الصعداء من قلب مبتهج فرح والامير او بيروف سعيداً يتامل بمسرة لا توصف ذينك الشابين الذين يشبهان كوكبين ساطعي الانوار وجوليا مستنيرة الوجه سعيدة ناسية كل ما مرّ عليها من الآلام لتلك الساعة التي تم بها مرامها ووعدها لكرمابه اخر ساعة

وعند نهاية الحفلة ورجوعهم الى القصر تقدم الامير او بيروف الى مرتا فضمها طويلاً وقبلها قبلة ابوية وقال

— اخبريني يا مرتا انك سامحتني

— نحن في الحال وقد ضربت صفحاً عن الماضي من زمان طويل فاحبك واجلك يا ابي وقبلت يد الامير ثم يد سلياري الذي هطلت دموعه سروراً بها وان كانت حرمته من نفسها سبب ثروة كبيرة وفخر ومجد اسمى من كل ما تمناه في حياته الشهيرة وقال لها

— ان سعادتك لعظيمة حتى اني اتعزى على فقدك ولا اموت غماً من بعدك لان الفن حياة النفس

فاجابت مرتا بلطف

وان الغرام حياة القلب المستهام

واختتمت جوليا الحديث بقولها

والغرام حياة المرأة على الدوام

